مجلة جامعة الملك سعود، م١٢، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (١)، ص ص ١-٤٧ (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

حركة الشيخ مابا جاخو الإسلامية الإصلاحية الجهادية ودورها في الحياة الإسلامية بغربي إفريقية (١٨٥٠ - ١٨٩٠م)

مهدي رزق الله أحمد

أستاذ مشارك، قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. يتناول البحث التعريف بشخصية إسلامية مرموقة ودورها البارز في مسيرة الحضارة والدعوة الإسلامية والتاريخ الإسلامي بغربي إفريقية، وأبرز في تناوله الجوانب الآتية :

١ - اسمه وأصله ونشأته : فبين أن هناك عدة روايات حول رسم اسمه، وأن الاسم الذي اشتهر به هو مابا جاخو، وأنه من قبيلة التورودبي التي صاهرت قبيلة الولوف، وأنه نشأ في أسرة مسلمة، وتلقى تعليما وتربية إسلامية سنية، أهلته للقيام بدور كبير في حركة التعليم والتربية، والدعوة والجهاد العسكري، ثم قيام دولة إسلامية.

٢ - المجتمع الذي نشأ فيه : أوضحت الدراسة طبيعة التركيب الاجتماعي والسياسي والديني للمجتمع الذي قام فيه مابا بحركته الإصلاحية.

٣ - فجر الدولة الإسلامية بزعامة مابا : تعرضت الدراسة هنا إلى العوامل التي ساعدت على قيام دولته، وكان من أبرزها : ضعف السلطات التقليدية في منطقة سنغامبيا، وظلم جماعات التيدو والسوننكة لغيرهم. وتعرضت لجهود مابا في أسلمة مجتمعه وجهاده العسكري، ونجاحاته واصطدامه بالفرنسيين المستعمرين.

٤ - فشل جهاد مابا العسكري : أوضحت الدراسة العوامل التي أدت إلى فشل جهاده العسكري، وكان من أهمها : كثرة الأعداء وضعف السلطة المركزية وتمرد بعض قياداته وحدوث انشقاقات في صفوفهم والتدخل الأوروبي.

٥ - إنجازاته وآثار جهاده : بينت الدراسة المجالات التي نجحت فيها الحركة ، من أبرزها : الإسهام في أسلمة مجتمعه من عدة نواح ، قبل وبعد وفاة مابا ، خاصة دور بعض قيادات الجهاد ، أمثال ، لات دايور وآلبوري انجاي وفودي كابا .

مقدمـــــة

أهداف البحث

يهدف البحث إلى تعريف أبناء الأمة الإسلامية في المشرق الإسلامي بجهود شخصية إسلامية في أسلمة مجتمعها بغربي إفريقية ، وتصديها للحركة الاستعمارية والتنصيرية ، وذلك لأن الباحث لاحظ جهل كثير من المثقفين المشارقة بتاريخ الإسلام وحضارته في غربي إفريقية بصفة خاصة وفي إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى بصفة عامة . والسبب الرئيس وراء هذا هو أن معظم التاريخ الإسلامي الحديث في هذه المنطقة ، لا سيما في القرنين التاسع عشر والعشرين ، قد كتب بأيد أوروبية غير مسلمة ، وبلغاتهم .

أهمية البحث

ترجع هذه الأهمية إلى خلو المكتبة التاريخية الإسلامية العربية من بحث متكامل يتناول الجوانب المختلفة للحركة الإسلامية الإصلاحية التي قام بها الشيخ مابا جاخو بمنطقة سنغامبيا ، إذ أن الدراسات التي تعرضت له كانت باللغتين الفرنسية والإنجليزية . ويكشف لنا ثبت المراجع هذه الحقيقة . والأهداف تبين الأهمية .

نشأة المجاهد مابا جاخو نيديوجويا قبل الجهاد العسكري

توجد عدة روايات مختلفة حول رسم اسم هذا المجاهد ، ومثال ذلك : مابه أو مابا Mabah ، وحماه باه أو حاما باه Hamah Bah ، وآمادي با Amady Ba ، وآمات با Amath Ba ، ومابا تياخا Maba Tiakha ، وما باكياخو Maba Kikhaou ، . . . إلخ . ولعل أشهرها مابا جاخو . ويعرف الاسم «با» اليوم في نسب قبيلة التورودبيTorodbe ، ومشهور جدا في بلاد السنغال وما جاورها [١ ، جـ١ ، ص ص ٢٣٤ ، ٢٥٨] .

كما توجد عدة روايات مختلفة حول أصله وخلفيته الاجتماعية . فتذكر بعض

الروايات بأنه كان من قبيلة الماندنجو أو الولوف أو السيرير. وهناك حفيد لأخيه يدعى عثمان جاما با يرجع أصل الأسرة إلى الملك المالي سندياتا.[١] ويقرر أن أسرته من قبيلة التورودبي التي تزاوجت كثيرا مع قبيلة الولوف [١، جـ١، ص ص ٢٣٤، ٢٥٦].[٢]

كان مابا الابن الأكبر لشيخ مسلم يسمى نيديوجو با N' Diogou Ba، جاء من منطقة فوتاتورو، بوادي السنغال الشمالي، إلى إقليم بادِّبو Baddibu[٣] الماندنجوية الواقعة على ضفتي نهر جامبيا، حيث قطن في منطقة مأهولة بقبيلة الولوف، وأسس مدرسة قرآنية هنا، وذلك في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي [١، جـ١، ص ص ٢٣٤، ٢٥٨].

ولد مابا في بادِّبو نحو سنة ١٨٠٩م. وكانت والدته دياخوجايا Diakhou Jaya امرأة ولوفية من الجولوف [٥، ص ٦٧، الحاشية]. ويعرف له أربعة إخوة غير أشقاء: مامور انداري (الأكبر)، عثمان، سائر دياليحو دياجن وعبدو با. وكانت أمهاتهم أيضا من الولوف [١، جـ١، ص ص ٢٣٤، ٢٥٨].

ويذكر مارتن كلين Martin A. Klein [٥، ص ٦٦، حاشية (d)] بأن جد الشيخ مابا الذي يدعى باتي دولوه Pate Douloh اعتنق الإسلام السني للتوردبي بُعَيد تمرد فوتاتورو لعام ١٧٧٦م. ويذكر بيتر كلارك Peter B. Clark [٤، ص ١٤١] أن جده إبراهيما – أي إبراهيم – ماباتي با Mapate Ba أسس مدرسة إسلامية في جولوف.

علمه والده شيئا من القرآن الكريم ومبادىء الشريعة قبل أن يرسله إلى المدرسة القرآنية بمدينة كايور Cayor وجولوف الجولوفيتين؛ وفي كايور تعمق في الدراسات الإسلامية، وانفتح على الفكر الإسلامي الحديث القادم من شمالي إفريقية. وأرسل في الوقت نفسه أخاه مامور للدراسة في موريتانيا [١، جـ١، ص ٢٣٥؛ ٥، ص ٦٧، الحاشية؛ ٤، ص ٣٤].[٤]

---

١ سندياتا: مؤسس دولة مالي الإسلامية، توفي عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، وخلفه ابنه منسا علا علي [٢، جـ٥، ص ٤٣٣؛ ٣، جـ٥، ص ١٩٣].

٢ قال هذا في مقابلة أجراها معه المؤلف كوين (Quinn) في مدينة باثورست، عام ١٩٦٥م [١، جـ١، ص ٢٥٦ – الحاشية رقم (٦)، وص ٢٣٤].

٣ وتعرف أيضا بـ «ريب» Rip [٤، ص ١٤١].

٤ ويذكر كلين [٥، ص ٦٧] أن مدرسة مابا كانت في بلدة تدعى امبايين M'Bayene.

وانتقل مابا في وقت لاحق إلى بلاد الجولوف حيث درس عند شيخ يدعى مومار امباي Momar M' Baye، وطبقا لروايات أسرة مابا فإن هذا الشيخ هو الذي أطلعه على مفهوم الجهاد [١، جـ١، ص ٢٣٥].

افتتح ما با مدرسة إسلامية بنفسه أثناء إقامته في الجولوف، وكسب مكانة معتبرة أهلته بأن يتزوج امرأة من الجولوف تدعى ماتي إنجاي، ابنة أخ أو ابنة أخت الملك، وأنجب منها ابنه سعيد ماتي Said Matti [١، جـ١، ص ٢٣٥؛ ٥، ص ٦٧، الحاشية].

عندما توفي الشيخ نيديوجوبا – والد الشيخ مابا – سنة ١٨٢٧م، تولى زعامة الأسرة ابنه سائر دياليحو، لأن مابا، وهو الابن الأكبر، كان يواصل دراسته في كايور [٥، ص ٦٧، الحاشية]. وبعد سنوات جاءه إخوته وجماعته المسلمة، وحثوه على العودة إلى بلدهم بادبو، فوافق بعد تردد [٦، ص ص ٣٤ – ٣٥]. والتقى إثر مجيئه إلى بادبو بالشيخ الحاج عمر الفوتي، زعيم الفرقة التجانية [١، جـ١، ص ٢٣٥؛ ٦، ص ٣٤؛ ٤، ص ١٤١] وذلك سنة ١٨٤٨م. وتوسم فيه الفوتي خيرا، وبشره قائلا: «ستصبح في المستقبل القريب – بإذن الله – من المجاهدين، وستكون وبالا على كفرة المشرق والمغرب، أعلن الجهاد، ولتكن «سين» آخر هدف لك، لأن «سيرير سين» وإن كانوا وثنيين، فإنهم شرفاء ونشطون، لذلك فهم يستحقون الاحترام» [٧، ص ص ٧٩ – ٨٠؛ ٤، ص ١٤١]. ٥

وهذا القول المنسوب إلى الفوتي تأكيد صادق وتعليل موضوعي لأسباب قيام تلك الثورات الإسلامية بغربي إفريقية، فهي لم تقم إلا لمقاومة الفساد والظلم، لا لقهر المسالمين مهما كانت عقيدتهم [٧، ص ٨٠]. وتذكر بعض الروايات أن الحاج عمر والشيخ مابا اتفقا على تقسيم المنطقة بينهما، بأن تقع مسؤولية حمل راية الجهاد إلى إقليم وادي نهر جامبيا على عاتق الشيخ مابا [٦، ص ٣٥]. وتذكر بعض المراجع أن مابا دخل في الطريقة التيجانية على يد الحاج عمر الفوتي [٦، ص ص ٣٤-٣٥].

وأقام مابا ببلده في هدوء، ودرس لمدة عشر سنوات على الأقل. وكانت تلك فترة الجهاد باللسان؛ تلك الفترة التي حاول فيها أن يرسخ مبادىء الإسلام ومفاهيمه بالتعليم والتربية والقدوة الحسنة [١، جـ١، ص ٢٣٥].

---

٥ ومصدر عبد القادر محمد سيلا [٧] هو: شيخ تجاني سي: الطريقة السنغالية للمريدين.

وقوبل مابا بالترحاب من قبل جيريبا مارونق Jeriba Marong، حاكم بادبو، الذي سعى مابا في أن يدخله الإسلام، ولكنه فشل في مسعاه. ومع ذلك أذن له هذا الحاكم بأن يؤسس مدينة عرفت باسم كير مابا Kir Maba، يعنى مدينة مابا بلهجة الولوف أو حامبا كندا Hamba Kunda بلهجة الماندي، حيث أنشأ فيها مزرعة وبجانبها مدرسة إسلامية، تحت شجرة كبيرة، مازال المسلمون يرتادون مكانها للصلاة فيه إلى اليوم [١، جـ١، ص ص ٢٣٥، ٢٥٦، حاشية رقم ١٣؛ ٦، ص ٣٥].[٦]

لقد جذبت المدرسة الجديدة الشباب من الأسر القيادية الكبيرة بالمدن المجاورة، وكان معظمهم من الولوف، من الولايات الشمالية، أمثال: بيرم سيسي من أسرة سيسي بمدينة ديارمز Diarmes، وانداري كاني، وجومبوجي، وأماثي، وسامبا، وعلي خوديا. وقد احتل هؤلاء الطلاب مراكز هامة أثناء حركة مابا الجهادية [١، جـ١، ص ص ٢٣٥، ٢٥٦، حاشية رقم ١٤].

وانضم كثير من المسلمين إلى جماعة مابا، مما جعل حكام بادبو يتوجسون منه خيفة، ولا يرتاحون إليه، لأن دعوته تتناقض مع تقاليد السيادة الماندنجوية. ولذا اعتمدت على إمدادات الأسلحة والمؤن الغذائية بالشراء من مدينة باثورست على يد أخيه مامورانداري [١، جـ١، ص ص ٢٣٥، ٢٥٦، حاشية رقم ١٥].[٧]

المجتمع الماندنجي بغربي إفريقية وسياسات الحركة الإسلامية في المنطقة

إذا أردنا أن نفهم أسباب نجاح أو فشل الشيخ مابا في محاولته الإصلاحية الدينية بغربي إفريقية، علينا أن نقف قليلا عند تركيبة المجتمع الماندنجي وأثرها الإيجابي أو السلبي على سياسات الثورة الإسلامية في المنطقة المدروسة.

في منتصف القرن التاسع عشر، وعلى حافات الغابات المطيرة بالساحل الغربي، كانت تقبع أربع عشرة مملكة صغيرة على امتداد وادي نهر جامبيا، من المحيط الأطلنطي إلى شلالات باراكوندا، على مسافة ثلاثمائة ميل إلى الداخل. وتشكل المنطقة واحدة من

---

٦ وتقع مدينة مابا حاليا شمالي الحدود الجامبية السنغالية. ويذكر كليرك Clarke [٤، ص ١٤١] أن والد مابا هو الذي أنشأ مدينة أو قرية كير مابا، وأن مابا ولد فيها.

٧ ومصدره هنا [٨، ص ٥٧٠].

أعظم مناطق استيطان قبيلة الماندي (الماندنجو) بغربي إفريقية . وتقع هذه المناطق على إحدى المجاري المائية الرئيسة بإفريقية . وكانت هذه المجتمعات منفتحة لحركة الهجرات السكانية وانتشار الأفكار الوافدة من الشمال والشرق، والمتجهة إلى الجنوب، ثم إن حركة المواصلات تحد بحافات الغابة ذات الأمطار الساحلية الغزيرة وتيارات المحيط غير الملائمة .

وكانت بادبو Baddibu آنذاك واحدة من تلك الممالك الماندنجية الأربع عشرة الصغيرة، وكانت تحكم لعدة قرون بوساطة أسر تنحدر مباشرة من أوائل المستوطنين الذين جاءوها من الشرق، منذ قبل أربعمائة سنة . وما زالت تلك الأسر تسيطر على معظم المصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي بوادي نهر جامبيا، لأن إقامتهم بها لمدة زمنية طويلة أعطتهم الحق في السيطرة على الأرض . وأخذت قوتهم تضمحل بحلول منتصف القرن التاسع عشر، لأن التقاليد القديمة التي كان يستند إليها حكمهم أصبحت بالية وتجاوزها الزمن . فقد تغيرت الحياة في كل جامبيا، وأن الناس الذين جاءوا إلى المنطقة بعد الأسر الملكية الحاكمة، استوطنوا بالقرب من النهر، وانغمسوا في تجارة الفول السوداني . فعندما اندلع جهاد الشيخ مابا، كان أغنى رجل ببادبو زعيما لمدينة إسلامية، على الرغم من أن المسلمين قد أبعدوا عن المناصب السياسية حتى في مدنهم الخاصة [٦، ص ٣٦] .

تقع منطقة سنغامبيا - السنغال وغامبيا [٨] - التي تقطنها قبائل الولوف والسيرير، إلى الشمال من دول جامبيا، وفي منطقة التجفيف المتزايد الممتدة من الجنوب إلى الشمال . وتقع ولايات التورودبي بمنطقة فوتاتورو وبوندو وفوتا جالون إلى الشرق من المستوطنات الجامبية [١، جـ١، ص ٢٣٦] .

وعندما وصل أول البرتغاليين الرحالة المغامرين إلى جامبيا في القرن الخامس عشر، وجدوا مستشارين مسلمين في بلاطات الحكام الماندنجو . فقد كتب فرناندز في مذكراته أن هناك دعاة مسلمين من فارس ومراكش يقومون بالتدريس وسط الولوف [١، جـ١، ص ٢٥٦، حاشية رقم ١٨]،[٩] ومن المحتمل أنهم من الماندي - ديولا وغيرهم من تجار المناطق البعيدة القادمين من مالي، الذين أدخلوا الإسلام أول مرة في جامبيا خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر، عندما أقاموا مجتمعاتهم على طول ضفتي النهر . وهناك مركز نشر

٨ ترسم هكذا - أحيانا - أي غامبيا - بدلا من جامبيا .

٩ والمصدر الذي نقل عنه كوين Quinn هو [٩، ص ص ٧ - ٩] .

دعوة تكروري آخر - دولة قبلية في فوتاورو - أرسل أيضا دعاة مسلمين من التورودبي إلى مجتمعات الولوف والفلبي والماندنجو على نهر جامبيا . وبحلول القرن التاسع عشر نشأت بدول نهر جامبيا طبقة من الدعاة المحليين . رحب المواطنون المسلمون والوثنيون بعلماء الدين المسلمين، كما هو الحال في كل غربي إفريقية، لما يقدمونه من خدمات في مجال التعليم والتطبيب . ونتيجة لهذا وجدت مجتمعات مسلمة في كل مجموعة عرقية تقريبا على طول نهر جامبيا [١ ، جـ١ ، ص ٢٣٦] .

ووجد الكتاب الإسلامي المتداول في بلدان غربي وشمالي إفريقية طريقه إلى جامبيا منذ القرن السابع عشر الميلادي . فالرحالة البريطاني جوبسون Jobson، الذي زار المنطقة سنة ١٦٢٠م، وجد علماء دين مسلمين في ولايات نهر جامبيا يملكون كتبا عظيمة، كثير منها مخطوطات في مجلدات [١ ، جـ١ ، ص ص ٢٣٦-٢٣٧ ، ٢٥٦، حاشية رقم ١٩] . [١٠] ووجد الرحالة مانجو بارك بمدينة كاماليا مدير مدرسة محلية يمتلك إضافة إلى القرآن وكتاب أو كتابين في التفسير، مجموعة متنوعة من المخطوطات، اشترى جزءا منها من التجار المغاربة وبعضا منها من مسلمي المناطق المجاورة، ونسخت بعناية فائقة [١ ، جـ١ ، ص ٢٥٦ ، حاشية رقم ٢٠، وص ٢٣٧] . [١١]

ونتيجة لهذا الانفتاح على مبادئ الإسلام وفرائضه في هذه المنطقة، فإن مظاهر الإسلام وعلامات التحول إليه بادية في ممارسات الناس لشعائر الإسلام من صلاة وصيام وحج على امتداد النهر [١ ، جـ١ ، ص ص ٢٣٧ ، ٢٥٦، حاشية رقم ٢١] . [١٢] وبحلول القرن التاسع عشر ، فإن المدن الإسلامية التي لم يكن بها مسجد، خصصت مناطق لصلاة الجماعة، ويقال إن المسجد الذي بساباجي بمنطقة كومبو كان أضخم مسجد بسنغامبيا [١ ، جـ١ ، ص ص ٢٣٧ ، ٢٥٦، حاشية رقم ٢٢] . [١٣]

كان معظم مسلمي هذه المناطق من التجار ، وأفادوا من التجارة المزدهرة لتصدير الفول

---

١٠ وهذا من وصف رحلة جوبنسون لجامبيا عام ١٦٢٠ - ١٦٢١م، في كتابه : [١٠، ص ١٠١] . كما ذكر كوين [١ ، جـ١ ، ص ٢٥٦، حاشية ١٩، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧] .

١١ وكتاب مانجوبارك المشار إليه هو [١١] .

١٢ ومصدر كوين هو [١٢، ص ٣٩] .

١٣ ومصدر كوين هنا [١٣، ص ٢٢٤] .

السوداني، الذي كان السلعة الرئيسة في اقتصاد نهر جامبيا. وكانت ثروتهم ومقدراتهم التجارية قد جعلت منهم قوة ضاربة في الدول التقليدية التي عاشوا فيها بهذه المنطقة. وكان أغنى رجل في بادبو عند منتصف القرن التاسع عشر من المسلمين كما سبق ذكره [١، جـ١، ص ص ٢٣٧، ٢٥٦، حاشية رقم ٢٣؛ ٦، ص ٣٦].

على الرغم من تعرض أهل المنطقة المدروسة إلى مؤثرات إسلامية قوية، وأن الإسلام منتشر على نطاق واسع، إلا أنه يصعب إعطاء تقديرات لنسبة من أسلم من السكان. وعلي الرغم من أن معظم قاطني مدن جانبي النهر كانوا من التجار المسلمين، وأن عدد الداخلين في الإسلام في ازدياد، إلا أن هكوارد Hecquard وآخرين من الرحالة كتبوا في تقاريرهم بأن الإسلام ما زال دين الأقلية في دول النهر، وأن أقلية من الوثنيين أو المسلمين الاسميين يمارسون شعائر دينية متعددة [١، جـ١، ص ٢٣٧]. علاوة على ذلك، فإن مجتمعات قبائل الجولا الواقعة على الضفة الشمالية تمكنوا من حماية معتقداتهم التقليدية بنجاح كجزء من سياسة رفضهم لكل الضغوط الوافدة عليهم من المجتمعات الخارجية [١، جـ١، ص ٢٣٧؛ ٥، ص ٦٨]. [١٤]

وعلى الرغم من أن المسلمين يشكلون الطبقة المتعلمة، وكثيرا ما يحتلون وظائف استشارية هامة، كما سبق ذكره، إلا أنهم كواحدة من عدة مجموعات، لا يولون وظائف إدارية في دول الماندنجو، لاختلافهم معهم في الدين والثقافة. وإلى منتصف القرن التاسع عشر كان هناك سلالات قليلة ممن طالت مدة بقائها في هذه المنطقة وتأثرت بدرجة ضعيفة بالمعتقدات الإسلامية أو أنها لم تتأثر بها على الإطلاق، استمرت في الادعاء لنفسها حقوقا احتكارية على المصالح الاجتماعية والاقتصادية الرئيسة بوادي نهر الجامبيا [١، جـ١، ص ٢٣٧].

البناء الاجتماعي لدول الماندنجو

عاش عدد من مجموعات عرقية على طول نهر جامبيا في ستينيات القرن التاسع عشر، يضمون الفلبي والولوف والساراخولي والماندنجو (الماندي). وكان أكبرها الماندنجو، (الذين قدروا بتسعين ألفا).

---

١٤ ومن مصادر كوين في حاشية رقم ٢٤، ص ٢٥٦: رحلة مانجوبارك، [١١، ص ١١]. ويذكر كلين [٥، ص ٦٨] أن السيرير كانوا الوحيدين الذين لم يكن بينهم مسلم في ذلك الوقت.

وينقسم سكان دول نهر جامبيا تقليديا إلى مجتمعات وحدات قروية إقليمية وأحياء وأسر، وكل واحدة منها منظمة سياسيا واقتصاديا وفق مبادىء وقواعد علاقات أسرية معينة.

ويجرى تصريف الشؤون الإدارية للقرية بوساطة من يسمى بمالك الأرض أو الكالي alkali، يعاونه مجلس مكون من رؤساء الأحياء أو المجمع. ويقوم مع هؤلاء بتحديد حقوق ملكيات الأرض وتعيين العمالة من مجموعات عمرية معينة، ويجمع الضرائب ليرسلها إلى المانسا - الحاكم - ويمثل القرية كوحدة إدارية داخل الدولة. ويسوي الخلافات داخل القرية ويجمع الغرامات التي تحتفظ بها مصلحته الخاصة. ويحتفظ أيضا بضريبة صغيرة من الغرباء الذين يستأجرون أراضي بالقرية، ويتخد من الوسائل ما يضمن له نسبة معتبرة من بضائع التجار أو المسافرين الذين يعبرون قريته.

ويتحيز النظام السياسي الماندنجي لأفراده من ذوي الأسبقية أو الأقدمية والنسب المعين، فهؤلاء لهم الحق في أن يحكموا وأن يحصلوا على دخول ليحافظوا بها على مراكزهم على امتداد نهر الجامبيا، فإن حقوق السيادة يتقاسمها بالتناوب سلالات عريقة معينة. فالجادماز Jadamae الذين عاشوا في جمانسا Jimansa والجاميهز Jammehs بإلياسا Illiasa والمارونجز Marongs بجاريجير وانديا India والمامبورز Mambures بكوباندا Kubajda، يحكمون على التوالي. وأن مركز المانسا، كرئيس لإحدى أعرق الأنساب والسلالات في الدولة، يكتسب شرعيته عن طريق تقاليد معقدة خاصة باستيطان الأرض. وللمانسا حق ادعاء كامل السلطة لتحديد استخدام الأرض في جميع أنحاء الدولة وحق جمع الإتاوات. ويجمع بين السلطتين القضائية والإدارية، وأن الغرامات التي تجمع في بلاطاته فهي له. وهو الوحيد الذي يملك حق إعلان الحرب أو إبرام عقد الصلح، وذلك بمشاورة زعماء المدن الهامة، والذين عينوا وفق تقاليد معينة. ونتيجة لحقوقه على الأرض في كل الدولة ومركزه المتميز، فإن دخله كان كبيرا في القرن التاسع عشر، مما جذب أعدادا من الوكلاء والعملاء من خارج أنظمة القرابة بمجتمع القرية ليعملوا تحت سلطته المباشرة. أو يستأجرهم من مجموعة عرقية أخرى كمرتزقة، ويكونون أحيانا من الأرقاء أو من أفراد لا انتماء لهم، يلتحقون بحاشية المانسا، وهم أبناء الدولة.

عاش المزارعون والتجار الولوف في ولايات الضفة الشمالية للنهر منذ فترة طويلة،

وبخاصة في بادبو والمناطق الجنوبية من إقليم سالوم، حيث مد الحكام الولوف/ السيرير سيادتهم إلى أسفل ضفة النهر. وفي بادبو ونياني، كان الولوف يدفعون العشور للحكام الماندنجو مقابل استخدامهم للأرض، على الرغم من أن هذه الولايات كانت تدفع الجزية للولوف في سالوم خلال القرن الثامن عشر. ودفع الماندنجو مجتمعات السيرير إلى حافات ولايات جامبيا، ليعيشوا بها حياة قلقة وغير مستقرة وكصغار مزارعين وصائدي أسماك.

ورعى عدد من الفلبي الرعاة أنعامهم في هذه المنطقة بإذن من ملاك الأراضي الماندنجو الذين فرضوا عليه ضرائب باهظة، وكثيرا ما يصادرون مواشيهم ومنتجاتهم. وأن مجتمعات الفلبي المستقرة (تورودبي) قد أقاموا في كل ولايات الضفة الشمالية، في شبه مقاطعات مستقلة محاطة بأرض أجنبية، حذرا من ادعاءات الماندنجو بالسيادة عليهم. وأتى التجار والمزارعون الساراكولي في أعداد متزايدة أثناء القرن التاسع عشر ليزرعوا الفول السوداني على أرض مستأجرة من الماندنجو في مواسم قليلة، ثم يبيعونه قبل أن يعودوا إلى أوطانهم بشرقي جامبيا. فكل هؤلاء «الغرباء»، إضافة إلى المجموعات المنبوذة والأرقاء، محرومة من حق امتلاك الأراضي وامتيازاتها. وكانوا كثيرا ما يتظلمون من الشروط الاستغلاليةوسوء المعاملة. ومن جهة ثانية فإن الفلبي كانوا منقسمين على أنفسهم إلى درجة كبيرة، وأن الساراكولي كانوا قليلين جدا، بحيث لا يستطيعون تقديم أي بديل محلي جاد لحكم الماندنجو. وأدت العلاقة بين مجموعات الغرباء وزعماء الماندنجو إلى تعزيز قوة الأخيرين. ودفع الغرباء من الخلفيات المختلفة الجزية، وقدموا الخدمات المختلفة للاستقراطية الماندنجوية [١، جـ١، ص ص ٢٣٨ - ٢٣٩].

فجر الدولة الإسلامية بزعامة الشيخ مابا

ظهرت على مسرح الأحداث مجموعة سياسية كبرى بحلول منتصف القرن التاسع عشر، أمكنها أن تتحدى السيادة التقليدية للماندنجو. كانت تلك قوة المسلمين من جميع الخلفيات العرقية الذين حرموا أيضا من الوظائف السياسية والإدارية خارج مدنهم، وحرموا من حقوق امتلاك الأرض ومصادر الدخل. وعاش مسلمو الولايات الجامبية - بعامة - أفرادا أوجماعات في قراهم وأحيائهم ودوائرهم الخاصة بهم، منفصلين عن الوثنيين الذين عاشوا في وحدات أسرية كبيرة وممتدة. ويمكن للرجل المسلم أن يتزوج

بامرأة مسلمة فقط . وتتسق الحياة في هذه المستوطنات الإسلامية مع العادات والشريعة الإسلامية ، ويبدو هذا جليا في الطعام والشراب واللباس والصلاة وكل مظاهر الحياة الاجتماعية . ولكل قرية زعيمها المدني وزعيمها الديني الذي يعرف بالإمام . وللأحياء الإسلامية المرتبطة بالمجتمعات الوثنية رؤساؤها الخاصون الذين يمثلون الحي في مجلس القرية . وهناك شبكة من الجمعيات أو الاتحادات التجارية والعلاقات التعليمية والصداقات ، فوق مستوى القرية ، ربطت المجتمعات الإسلامية في البلاد الجامبية .

سكن المسلمون مع بعضهم نظرا لوجود المصالح المهنية والدينية المشتركة بينهم ، وليس بسبب العلاقات العرقية فقط . وكثير منهم يمتهنون التجارة ويسافرون كثيرا إلى أصقاع بعيدة ، ويتركون أعمالهم الزراعية للأرقاء والنساء . ولا تقطن كل المدن الإسلامية على طول البلاد الجامبية بوساطة التجار وعلماء الدين أو المهاجرين الغرباء ، علاوة على أنه لا يمكن تمييز المسلمين من غيرهم من الزراع الوثنيين المجاورين لهم . يذهب الأطفال من أمهات وثنيات والذين من أمهات مسلمات إلى المدرسة القرآنية ، وأخيرا ينضمون إلى المجتمع الإسلامي . وكثيرا ما يترك الأبناء الشباب أو المحرومون من الميراث مدنهم ليلحقوا بعلماء الدين أو يقومون بتأسيس قرى خاصة بهم . وكثيرا ما تجد المجموعات العرقية التي تتقاسم أراضي القرية والمراعي والمدارس ، كثيرا ما تجد نفسها منقسمة بين الجهات المتعارضة أثناء حركة الجهاد .

ترجع أسباب مغادرة المستوطنات لأسباب سياسية أو عقدية إلى زمن الهجرة النبوية وعصر الجاهلية . إنه نمط تكرر كثيرا أثناء فترة الإصلاح الإسلامي الجهادي بغربي إفريقية . كانت المدن الواقعة على طول نهر جامبيا ومقابلة للولايات الجامبية ، تقطن بصفة عامة - في خمسينات القرن التاسع عشر - بوساطة مسلمين يزعمون أنهم نزحوا من مستوطنات داخلية احتجاجا على الأخلاق المنحلة في تلك المستوطنات . فاختاروا مواقع قراهم الجديدة بعناية ، كما سيطروا على صادرات النهر من محصول الفول السوداني .

وهكذا ، فمع حلول منتصف القرن التاسع عشر وجد مجتمعان متباينان متغايران داخل الإطار العام للولايات الماندنجوية ، كل واحد منهما له عاداته وقوانينه الخاصة ، يتفاعلان في بعض المستويات ، ولكنهما متعارضان جوهريا مع بعضهما البعض على مستويات الدمج الأساسية . وأصبح المصطلحان «سوننك» و «مارابوط» أو مرابط Marabout

أهم مصطلحين في قاموس التصنيف الاجتماعي السياسي في منطقة سنغامبيا .

وفي ضوء المفاهيم الشعائرية ، أخذ «مصطلح سوننك» يستخدم في الولايات الجامبية كمرادف لمصطلح «كافر» ، وهو المصطلح الذي يطلق على الوثنيين أو المسلمين الذين لا يلتزمون بالشريعة الإسلامية . فمصطلح «مرابوط» (المرابط) ، الذي يعني «شيخ أو معلم» ، كان ذا صلة بالطرق الصوفية بشمالي إفريقية . أما في سنغامبيا ، فإنه يشير إلى كل الملتزمين بالإسلام الصافي .

فعندما انفجر الجهاد ، أصبح مصطلح «سوننك» يعني حزب الأسر الأرستقراطية الحاكمة وأتباعهم ، بينما أصبح مصطلح «مرابط» يشير إلى بقية قطاعات المجتمع الأخرى ، تلك القطاعات التي حرمت حقوق امتلاك الأرض وحقوق تبوؤ مناصب الدولة العليا [١ ، جـ١ ، ص ص ٢٣٨ - ٢٤٠ ؛ ٥ ، ص ٦٩ ، الحاشية] .[١٥]

ضعف السلطات التقليدية في سنغامبيا

أخذت سلطات الماندنجو التقليدية في الضعف خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وذلك للأساب الآتية :

أثر تبدل أنماط التجارة في البناء السياسي للمجتمعات الإفريقية عبر البلاد الجامبية . وأن الضرائب وغيرها من العلاوت والأجور الإضافية التي تجبى من تجارة الرقيق ، التي كانت تشكل عصب وقاعدة اقتصاد السلطة السوننكية خلال القرن الثامن عشر ، فقد فقدت هذه الدخول عندما تدهورت هذه التجارة ، وتدفقت إلى المنطقة جماعات من «الغرباء»مع ازدهار زراعة وبيع الفول السوداني بعد عام ١٨٤٠م ، فبدأ يتبدل اقتصاد

١٥ ألقى كلين [٥ ، ص ٦٩ - الحاشية] الضوء على هذه المصطلحات قائلا : « إن المصطلح مارابوط Marabout الذي (يعني بالولوفية «Serigne») كان يطلق عامة في كل أنحاء سنغامبيا على المساندين للمرابطين - أي المسلمين - وأن الذين ظلوا على ولائهم للنخبة التقليدية يدعون سوننكي «Soninke» في جامبيا ، وتيدو Tyedo في السنغال . وأن المصطلح «سوننكي» يأتي من اللفظ « سو - ني ، » الكلمة الماندنجية التي تعني التضحية أو الشرب ، وتعني الشخص الذي يعطي الشرب ، أو ذلك المسلم الاسمي . » وينوه كلين إلى أنه يجب عدم الخلط بين هؤلاء السوننكي وبين أولئك الناس الذين يحملون الاسم نفسه ويعيشون في وادي أعلى نهر السنغال ، والذين يدعون « ساراكولي . » ثم أحالنا هذا إلى جون اسبنسر ترمنجهام [١٤ ، ص ٢٤٦] وهاري قيلي Harry - Gailey [١٥ ، الفصل الثالث] .

المنطقة تبدلا جذريا . وقدر أن أكثر من ثلث إنتاج الفول السوداني قد تم على يد هؤلاء الغرباء الذين كان معظمهم من المسلمين المتحمسين ، والذين دفعوا رسوما لملاك الأراضي السوننك مقابل استغلال أراضيهم في الزراعة [١ ، جـ١ ، ص ص ٢٤١ - ٢٥٦] . ويبيع هؤلاء المزارعون محصولهم مباشرة إلى تجار يعملون لمصلحة الشركات البريطانية أو الفرنسية . واستطاع المسلمون أن يشتروا السلاح والمؤن بكميات كبيرة من ريع تجارة الفول السوداني مع تجار السلاح .

وبما أن السوننك قد فقدوا أرضيتهم الاقتصادية فإن قبضتهم السياسية أخذت في الاضمحلال . وأصبح حكام الماندنجو يعتمدون على من كانوا أتباعا لهم ، واستأجروا مرتزقة للمحافظة على مراكزهم بحلول منتصف القرن التاسع عشر . وتعيش هذه العناصر بعيدا عن بقية السكان - الزراع والتجار المحليين والغرباء - وأخذت مصالحهم تزداد تضاربا مع مصالح المسلمين «المرابطين» من ذوي الأملاك . فمثلا في خمسينات القرن التاسع عشر ثار مرتزقة حاكم نيومي Niumi وحرقوا عددا من مدن المرابطين الرئيسة .

إن قائمة الاعتداءات التي قام بها السوننك ضد المسلمين في بلاد بادبو كبيرة ومعروفة ومحدودة . فهم لم يرفضوا الدخول في الإسلام فقط ، بل انتظموا في فرق مسلحة تقوم بغارات مستمرة ضد المسلمين ، فيسرقون زوجات المسلمين وأملاكهم وأرقاءهم .

وأثر أيضا جموح وعناد عملاء المانسا (الحاكم) في مكانة السوننك . فقد تحلل هؤلاء العملاء ، في نيومي وغيرها من المناطق الواقعة على النهر ، تحللوا من أي قيد فعال ، ولذا بدأت ولايات جامبيا في التفكك والدخول في فوضى قبل إعلان جهاد الشيخ مابا . وأخذت المدن والمجموعات العرقية تسعى في الحفاظ على استقلال سلطاتها المركزية . وتفككت نياني إلى محافظات مستقلة بحلول عام ١٨٥٠م ، وحكم أكبرها بالطبع المستشار المسلم للمانسا (الحاكم) ، وأصبح تسوير المدن أمرا شائعا على طول ضفتي النهر بعد أن كان مقتصرا فقط على مدينة المانسا (السلطان) . وأصبح مركز السوننك في بادبو ، أحد أغنى المناطق بإنتاج الفول السوداني على النهر ، محفوفا بالمخاطر ، ويحيطه القلق وعدم الاستقرار . فقد رفض زعماء كثير من الجماعات العرقية السوننكية الاعتراف بسلطة المانسا ، سنة ١٨٥٠م ، وأخذت جماعات من الرجال المسلحين تجوب البلاد ، وتفرض إتاوات

على السكان، خاصة قطاعات المسلمين الأثرياء [١، جـ١، ص ص ٢٤٠ - ٢٤١، ٢٥٦].[16]

وقد أشارت روايات أسرة مابا إلى تلك الممارسات التعسفية ضد المسلمين، وذكرت أنها وَلَّدَتْ سخطا وتذمرا ضد السوننك، ولذا وجد مابا مناخا مناسبا وتربة خصبة لدعوته الجهادية الإصلاحية [١ جـ١، ص ٢٤١].[17]

ومن أهم آثار تدهور السلطات التقليدية للسوننك في هذه المنطقة التغلغل المتعاظم للسيادة الأوروبية بوادي النهر. فقد كانت المستوطنات الأوروبية في سنغامبيا في منتصف القرن التاسع عشر متفرقة وضعيفة. واتحدت مصالح البريطانيين مع مصالح السوننك عند دخول عام ١٨٥٠م. فاعتمد البريطانيون بالذات على السوننك للمحافظة على الأمن والنظام اللازمين لحركة التجارة بدول النهر، بينما دعم حكام السوننك وزعماء القرى مراكزهم عن طريق جباية الرسوم الجمركية والهدايا من الأوروبيين. وأصبحت على المدى البعيد علاقة ضعف للسوننك الذين تحملوا مسؤولية حماية المصالح الأوروبية التي كثيرا ما تتعارض مع مصالح شعبهم. وتمثل ذلك في أن قلل البريطانيون من الخيارات السياسية والثروة المتاحة لحكام المنطقة.

لم يضعف السوننك في مجالي السياسة والاقتصاد فقط، بل نجد أن الطوائف التي كانت تساندهم دينيا تفتقر وتضعف. وعانت الديانة الأرواحية الوثنية التقليدية للماندنجو من صلاتها مع الإسلام لمدة زمنية طويلة. إذ انقسمت الأسر القيادية الماندنجوية دينيا بحلول خمسينات القرن التاسع عشر. ففي نيومي، اعتنق الإسلام زعيم إحدى الأسر القيادية الهامة التي كانت تتزعم قيادة الحرب بالدولة؛ وانضم في ذات الوقت ابن المانسا إلى المسلمين ضد والده.

وهكذا أصبح الجو مهيئا للتغيير الاجتماعي والسياسي والديني في هذه المنطقة بحلول ستينات القرن التاسع عشر، وذلك لما ذكرناه من أسباب: السلطات التقليدية للماندنجو تضعف وتتراجع، وواجهتها التذمرات المتزايدة وسط الأفراد من جميع الطبقات والأعراق

---

١٦ ومصدر كوين [١، جـ١، ص ٢٥٦، حاشية ٢٨] هو [٨، ص ٥٧٠ وما بعدها].

١٧ ومصدر كوين [١، جـ١، ص ٢٥٦، حاشية ٣٠] هو [٨، ص ٢٥٧].

والخلفيات، وانضم معظمهم إلى المجتمع الإسلامي ليزيدوا من قوة المسلمين النامية. وكانت الحروب التي تبعت إعلان الجهاد أمورا أعراضية للتغيرات السلمية التي حدثت من قبل، وأصبح النظام القديم عديم الجدوى وحتمي السقوط، ولم يبق إلا إزالة الأنقاض عنه، والأهم هو قيام نظام بديل جديد، وسبق أن حدثت ثورات متفرقة في كيانج Kiang وولي Wali. ونجح المرابطون (المسلمون) بكومبو في أخذ نصف المجتمع من السوننك. وكان المطلوب في خمسينات القرن التاسع عشر قيادة وهدفا يجمعان السخط المنتشر عبر البلاد الجامبية [١، جـ١، ص ص ٢٤١-٢٤٢].

الجهاد العسكري بقيادة الشيخ مابا

عاد الشيخ مابا إلى تدريسه بعد لقائه مع الحاج عمر الفوتي، وأخذ يجمع حوله الأتباع رويدا رويدا. واستخدم القوة ضد سوننكة بادبو في فبراير من عام ١٨٦١م، بعد اثنتي عشرة سنة من لقائه بالحاج عمر. وقامت قوة صغيرة من البريطانيين في ذلك الوقت، وبعد سلسلة من الخلافات التجارية، قامت بالهجوم على الميناء الرئيس لبادبو على ضفاف النهر، وتوغلت إلى داخل الدولة.

لقد هدد وصول الجنود البريطانيين كلا من المسلمين والسوننكة. إذ تقع المدينتان السوننكيتان الرئيستان: انديا وإلياسا، إلى الداخل من النهر، وأحاطت بهما مجتمعات سواريكوندا المسلمة الرئيسة: سابا وكيروان وكيرمابا ونوكندا. وكان القذف المدفعي البريطاني موجها ضد مسلمي سواريكندا، تلك المدينة ذات التحصين المتين والمحشودة بالمحاربين. فعندما جاء البريطانيون إلى الشاطئ، سمع الناس دق طبول وشاهدوا البنادق تطلق أعيرة نارية في الهواء، وفتحت المدفعية البريطانية نيرانها على حيطان المدينة، ولكن، وعلى الرغم من أن القذف قد أحدث دمارا وثغرات كبيرة في المتاريس الترابية، إلا أن المحاربين المسلمين استمروا في المشي بهدوء فوق الأسوار، يشجعون أولئك الذين بالداخل. واستمر القذف لمدة ثلاث ساعات، وأجبر الإنجليز على الحرب بالسلاح اليدوي قبل أن تسقط المدينة في أيديهم [١، جـ١، ص ٢٤٢].

وعندما أخذت القوات البريطانية في التوغل إلى داخل البلاد كانت المقاومة الإسلامية القوية ضدهم على النقيض تماما من مقاومة الخيالة والجنود السوننك. فقد هزم الجيش

السوننكي هزيمة نكراء بمدينة سابا، ودمرت المدينة، وأحرق البريطانيون مدينتي كيريوان Kerewan وكنيتكوندا Kenetkunda .

وفي اليوم التالي لسقوط مدينة سواريكندا Suware Kunda، جاء الشيخ مابا – الذي ساعد في الدفاع عن المدينة – إلى قائد القوات البريطانية، وأبدى استعداده على الانسحاب من الحرب إذا ترك أتباعه وشأنهم. فوافق البريطانيون على ذلك، ومكث مابا بنفسه معهم كرهينة، وبناء عليه ساعده الحاكم البريطاني مساعدة عظيمة في السلام الذي تبع هذه الأحداث، وذلك لقلق زعيم زعماء السوننك من توقيع اتفاقية سلام [١، جـ١، ص ص ٢٤٣، ٢٥٧]. [١٨] وهزم جيش بادبو بعد مقاومة قصيرة، وغادر البريطانيون المكان بعد أن أحرقوا عددا من المدن الهامة، وفرضوا على السوننك دفع تعويضات مادية كبيرة مقابل خسائر البريطانيين في الحرب. وأخذوا معهم شخصيات سوننكية كرهائن، وقتل في الحرب اثنان من أبناء السلطان والقائد العسكري لقوات السوننك.

لا شك أن التفسير الوحيد لمحاولات مابا كسب ود السلطات الاستعمارية البريطانية هو إدراكه التام لخطورة نتائج إثارتهم ضده. فهم لا يقبلون وجود حركة إسلامية دعوية قومية جهادية تزيد عدد المسلمين وتجعل مهم قوة ودولة تهدد مصالحهم الاقتصادية والسياسية والدينية بالمنطقة. فأراد أن يبدي لهم حسن النوايا لينصرفوا عن نواياه البعيدة. فهو لا يستطيع في هذه المرحلة خوض حرب ضد أكثر من عدو – البريطانيين والفرنسيين والسوننك. ولذا كان لابد من المدارة كسبا للوقت وتحييدا لعدو ذكي قوي وشرس.

لقد تركت حرب بادبو الطبقة الحاكمة السوننكية مكشوفة وعرضة لأي بديل معاد منظم.

وليس بغريب أن يمتعض المانسا من موقف الشيخ مابا في الحرب المذكورة. وأخيرا وجد مابا أن من الأفضل له الانسحاب إلى باثورست Bathurst، المستعمرة البريطانية الواقعة عند مصب نهر السنغال في المحيط، حتى يصل إلى شكل ما من أشكال الاتفاق أو التفاهم مع السوننك. وحاول أثناء إقامته بباثورست أن يكسب مساندة السلطات البريطانية، ولكنه فشل، وبدلا عن هذا عرضت عليه أرض من الأراضي التي تحت حمايتهم، على الضفة

---

١٨ انظر كوين [١، جـ١، ص ٢٥٧، حاشية ٣٧].

الجنوبية للنهر، ليقيم فيها. فرفض العرض، واشترى سلاحا ومؤنا عسكرية من تجار باثورست، ثم عاد إلى بادبو بعد غياب دام لعدة أشهر، وانفجر الصراع بينه وبين المانسا مرة أخرى بعد وصوله من باثورست مباشرة. وكان من أسباب الصراع هذه المرة، أنه عندما لم يستطع السوننكة دفع التعويضات الكبيرة التي فرضها عليهم البريطانيون إثر حرب بادبو، حاولوا أن يجمعوها بالقوة من السكان المسلمين. فرفض المسلمون (المرابطون) الإسهام في الدفع بحجة أنهم تكبدوا أفدح الخسائر التي أحدثها الغزو عندما أحرقت مدنهم [١، جـ١، ص ٢٤٣]. ومن الأسباب الأخرى أن أحد أبناء المانسا أرسل من يغتال الشيخ مابا، ولكنه - أي الرسول - تخلى عن مؤامرة الاغتيال عندما كان في حالة سكر، وقتل نفسه بدلا من اغتيال الشيخ مابا. وتقول رواية أخرى للقصة إن ابن المانسا أخذ عنوة امرأة مسلمة، ثم حاول أن يفرض على الشيخ مابا إرسال بقرة لوليمة عرسه للمرأة. وبعد تبادل الشتائم بينهما، أرسل إليه مابا مع أخ له غير شقيق (يدعى أماث جوديا با) طبقا من الحبوب والعصيدة بدلا عن البقرة، فاحتجز ابن المانسا رسول مابا، وطلب أربعة رؤوس من الماشية مقابل إطلاق سراحه. ويقال إن الشيخ مابا ذهب مع أتباعه إلى قرية تسمى باسي خور Passykhour وقتل ابن المانسا [٥، ص ٧١؛ ٨، جـ١، ص ص ٢٤٣، ٢٥٧؛ ٦، ص ٣٧]. [١٩]

لهذه الأسباب وغيرها أعلن مابا الجهاد في سبيل الله قبل أن يتمكن المانسا من أخذ الثأر، ودعا كل مسلمي بادبو إلى اتباعه والوقوف معه. فاستجابوا له، فاجتاح بهم البلاد خلال أسابيع قليلة. فاستولوا على العاصمة انديا India وقتلوا المانسا. وأخرجت الطبقة الحاكمة السوننكية والطبقة المحاربة من بادبو. وسافرت الأسرة المارونجية الحاكمة وأتباعهم شمالا إلى سالوم Salum، بينما عبرت الأسرة الجامزية نهر جامبيا إلى كيانج وبمساعدة تجار باثورست. وأسرع المرابطون في تحصين مدنهم: دياخديار Diakhdiar وكيرمابا ونيورو وجاريجير Jarejare، أحد أقدم المستوطنات السوننكية، وغيرها، وأعلن مابا نفسه إماما على بادبو [١، جـ١، ص ٢٤٣؛ ٥، ص ص ٧٢ - ٧٣]. [٢٠]

ذكر الشيخ مابا مبررات جهاده، في رسالة كتبها في يناير من عام ١٨٦٣م، إذ يقول

---

١٩ ومصدر كوين [١، جـ١، ص ٢٥٧، حاشية ٣٧] هو [٨، ص ص ٥٧٣ - ٥٧٤].

٢٠ ومصدر كوين [١، جـ١، ص ٢٥٧، حاشية ٣٧] هو [٨، ص ص ٥٧٣ - ٥٧٤].

إن الأمر لوكان بيده لما كانت هناك حرب، لأن كل إنسان يريد العيش في سلام، وأن الحرب شر على الإنسان في الدنيا والآخرة، ولكن مسلمي جامبيا قد اضطهدوا، وهذا أمر محرم في شريعتهم، ومن ثم تقع عليه شرعا مسؤولية إنقاذ هؤلاء المساكين من حكامهم الأشرار [١، جـ١، ص ٢٤٣]. [٢١]

لقد حاول الشيخ مابا أن يوسع من نطاق مجتمعه الإسلامي في بادبو سلميا قبل عشر سنوات من اندلاع العنف، سنة ١٨٦١ - ١٨٦٢م، ولكن على الرغم من الترحاب الحار الذي لقيه من الوثنيين السوننكة والعلاقات السلمية المبكرة معهم، لم يفض ذلك كله إلى شيء، ولم ينجح في جعل المانسا مسلما، بل أخذ شك السوننكة فيه يتزايد، ثم أصبح أخيرا هدفا لهجومهم [١، جـ١، ص ٢٤٤].

وكانت أول مسألة تواجه قادة الجهاد، تحديد أبعاد المجتمع الذي يريدون إقامته وحمايته. فمن وجهة نظر الشيخ مابا، فإن حكام بادبو ونيومي وسالوم كانوا أعداء همجيين، سواء أكانوا من عبدة الأوثان أو ممن يمارسون الظلم والاضطهاد ضد المسلمين، ومن الواضح أن الشريعة الإسلامية تبرر قتالهم [١، جـ١، ص ٢٤٤].

كان الشيخ مابا شخصيا حريصا على صفاء الجهاد، خلافا لكثير من أتباعه وحلفائه، وعندما وقعت تجاوزات من قبل بعض أتباعه، مثل ذبحهم اثنين وستين شابا مسلما عند اجتياحهم لبادبو، لأن الزعيم السياسي للمدينة كان من قبل السوننك، أقسم الشيخ مابا أمام الناجين منهم بأن لا يُقتل مسلم أثناء الجهاد في المستقبل [١، جـ١، ص ٢٤٤، حاشية ٤٣].

لقد شجع نجاح الجهاد في بادبو المسلمين في كل المنطقة الجامبية على مهاجمة الحكم السوننكي، وكانوا في كثير من الأحيان يطلبون دعوة مابا لمساعدتهم روحيا وماديا. ومثال ذلك، أنه عندما أعلن مسلمو نيومي الجهاد ضد السوننكة في جميع أنحاء الدولة، طلبوا من الشيخ مابا أن يساعدهم. فأرسل إليهم أخاه عبده با على رأس مجموعة من الأتباع، فتمكنوا معهم من إحراق مدينة المانسا، وألجأوه إلى الهرب إلى المستعمرة البريطانية [٥، ص ٧٣]. واحتمت جماعة السوننك بمدينة إساو Essau، تحت حماية القلعة البريطانية المجاورة. وعلى الرغم من أن المسلمين تمكنوا من حصر السوننك في زاوية بالمنطقة ضيقة

---

٢١ انظر كوين [١، جـ١، ص ٢٥٧، حاشية ٣٧].

داخل الدولة، إلا أن نتائج الحرب بين الطرفين لم تكن حاسمة. وأبدى البريطانيون عداءهم للوجود الإسلامي، ولذا حافظوا على بقايا القوة السوننكية. ووصلت أنباء مزعجة من بادبو، أجبرت عبده با على العودة إلى وطنه بعد أسبوع واحد من المأزق. وانهارت حركة مسلمي نيومي أثر مغادرته. وأجبر البريطانيون مسلمي نيومي على الاعتراف بالمانسا السوننكي التقليدي. وانفجر نمط من حرب العصابات والغارات، استمر مدا وجزرا خلال العقد التالي من السنين، ولكن لم يكن أي طرف من الأطراف في قوة تمكنه من الانتصار الحاسم أو إعادة تأسيس نظام سياسي. ولم تكن نتائج الجهاد حاسمة في نيومي [١، جـ١، ص٢٤٥].

وفي غضون ذلك طلب سوننكة بادبو، الذين هربوا إلى سالوم، طلبوا مساعدة (البور) حاكم سالوم. ووجد المرابطون الذين عادوا إلى بادبو من نيومي عام ١٨٦٢م مدينتهم التي داخل حدود بادبو قد أحرقت، ولكنهم أجبروا البور (الحاكم) وأتباعه على التراجع، وتبعهم جيش مابا. وانقسمت سالوم في ذلك الوقت بين طموحات الزعماء المتنافسين: سامبا لاوبي Samba Laobe ووالده ماكودو. وأن ماكودو الذي كان ذات مرة حاكما على كايور، طرده الفرنسيون من تلك البلاد، أراد أن يحكم الآن سالوم، على الرغم من أن السلطة قد أصبحت في يد ولده. ووحد مابا قواته مع ماكودو، الذي حلق رأسه واعتنق الإسلام، ونجحا سويا في طرد الحاكم الشاب إلى خارج سالوم، إلى سين Sine المجاورة [٥، ص ٧٧؛ ١، جـ١، ص ٢٤٥].

وعندما نصب ماكودو حاكما، رجع مابا إلى بادبو. ولكن أفسد التدخل الأوروبي انتصار المسلمين للمرة الثانية. وعاد سامبا لوبي من سين وبصحبته ثلاثة آلاف من المحاربين، وطلب من الحامية الفرنسية بكونج - على نهر سالوم، قرب كاهون، عاصمة المسلمين - المساعدة. فهاجمه مابا بقوة، يقال إنها تقدر بأكثر من عشرة آلاف رجل. واستمر القتال طوال اليوم، ولكن تدخل الفرنسيين ببنادقهم الحديثة، أدى إلى انحدار المسلمين، وقتل منهم عدة مئات من المجاهدين. وجرح مابا نفسه، وأشيع أنه قتل، فرجع مسلمو بادبو إلى أقاليمهم، وتوفي ماكودو بعد فترة وجيزة [١، جـ١، ص ٢٤٥]، في يونيو من عام ١٨٦٣م. ومات سامبا لاوبي في فبراير التالي من عام ١٨٦٤م، وخلفه أخوه فاخا فال [٥، ص ٧٧].

على الرغم من تعدد الانتكاسات العسكرية ، إلا أن الفترة التي تلتها شهدت إعادة تنظيم للقوات . فعندما توفي سامبا لاوبي ، اجتاح مابا البلاد بدون منافسين له في سالوم . وجاء المسلمون في أعداد غفيرة ، من الضفتين الشمالية والجنوبية لنهر جامبيا ، ومن سالوم ، لينضموا إليه . وقدرت قواته بأحد عشر ألفا من المقاتلين .

وكان السوننك الذين عبروا النهر من بادبو إلي كيانج على الضفة الجنوبية ، كانوا يناورون أيضا أثناء هذا ليعودوا إلى بادبو . ونجحوا في بناء خط دفاعي على ضفة النهر مقابل تنيدبا ، وذلك أثناء وجود الشيخ مابا بسالوم ومع بداية عام ١٨٦٣م كانوا يتفاوضون مع حاكم سالوم والحكومة الفرنسية في الشمال من أجل هجوم مشترك ضد المرابطين (المسلمين) . وعبر في مارس ١٨٦٣م عدة مئات من المسلمين النهر من بادبو إلى كيانج ودمروا مستوطنات السوننك حول تنديبا . وتبعهم الشيخ مابا نفسه في أبريل من العام نفسه ومعه عدد كبير من المقاتلين . وأعلنوا في الوقت ذاته أنهم ينوون نقل العمليات الجهادية إلى جميع دول النهر ، لوضع حد نهائي لتحدي السوننكة لمركز المسلمين في بادبو ، وتحطيم كل المؤسسات السياسية التقليدية ، وقتل السلاطين والقادة السياسيين بالمدن السوننكية [١ ، جـ١ ، ص ٢٤٦] . ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهي السن . فدارت المعارك ، وتلقى مابا هزيمته الثانية الكبيرة في مدينة كونيلا Kwinella ، إحدى المدن الرئيسة في إقليم كيانج ، بعد عبوره نهر جامبيا بفترة وجيزة ، وقتل عدة مئات من المسلمين المجاهدين ، وتركت جثثهم في العراء ، خارج أسوار المدينة ، وادعى السوننكة أنهم استولوا على مصحف الشيخ مابا وفرسه وطبل حربه أثناء هذه الهزيمة [٥ ، ص ص ٧٨ - ٧٩ ، ٩٢ ؛ ١ ، جـ١ ، ص ٢٤٦ ؛ ١٥ ، ص ص ٤٨ - ٤٩] .[٢٢] وانسحب مابا ، ولجأ إلى بلدة صمبندو Sumbundu [١٦ ، ص ٤٩] .

لم تؤثر الهزيمة كثيرا في مسيرة الجهاد الذي نجح في كثير من الميادين الأخرى . فقد امتدت الثورات على طول ضفتي النهر ، وهذا هو النجاح الأساسي لحركة الجهاد ، إذ أنه في ستينيات القرن التاسع عشر لم تعد القبائل السوننكية تشكل نهائيا أي عامل سياسي ذي قيمة على طول نهر جامبيا . وأجبر سوننكة مدينة نيومي على أن يكونوا لاجئين في

---

٢٢ يذكر كوين [١ ، جـ١ ، ص ٢٤٦] أن عدد قتلى المسلمين بلغ خمسمائة رجل .

مدينتي إساسو وباثوروست للمرة الثانية. وطردوا من بادبو كليا، وأحبطت جميع محاولاتهم في العودة خلال حياة الشيخ مابا. وطرد حاكم كاتابا بإقليم نياني، فلجأ إلى المناطق الداخلية للنهر، وانقسمت البلاد إلى عدد من المجتمعات الإسلامية الصغيرة. وتمكن فودي كابا - أحد قادة مابا العسكريين الذي كان على الضفة الجنوبية من النهر - من الإطاحة بالزعامات السوننكية من فوقني Fogny إلى كانتورا Kantora. وحكم المسلمون في كومبو بعد سنة ١٨٧٥م، تحت زعامة فودي سيلا، وسمحوا للحاكم (المانسا) السابق وأتباعه بالبقاء على الأرض التي عينت لهم بوساطة المسلمين.

واستطاعت سلطات محلية سوننكية قليلة أن تصمد أمام الاجتياح الثوري الإسلامي الإصلاحي، مثل: كونيلا في إقليم كيانج وولي Wili فقط. وأما هيكل الدولة السوننكية القديم، فقد تمكن من البقاء، ولكن في حالة ضعف شديد، في هذه الفترة.

ومع ذلك، وبعد هزيمتهم في كيانج، لم تجر قوات مابا محاولة لتعزيز المكاسب التي حققتها على نهر جامبيا. فقد قاد الحرب التي استمرت هنا على مدى ثلاثين عاما، قادها زعماء محليون، ولم تؤسس هياكل ثابتة لدولة إسلامية. وعلى الرغم من أن بادبو ظلت قاعدته وملاذه إلا أن قواته وجهت في أعداد متزايدة تجاه المقاطعات الولوفية في الشمال من نهر السنغال.

وكان العامل الرئيس الذي أسهم في التوجه نحو الشمال تحالف نشأ بين الشيخ مابا ولات دايور، حاكم كايور، إلى أن عزل الفرنسيون الأخير عام ١٨٦٤م. فلجأ الحاكم الولوفي إلى الشيخ مابا، في ذلك الوقت، واعتنق الإسلام، وانضم إلى فيالق الجهاد.

لا تعطي روايات أسرة مابا تقارير الأوروبيين المعاصرين ثقة كبيرة في دوافع لات دايور الدينية النبيلة في الانضمام إلى جهاد الشيخ مابا [٥، ص ٨٠؛ ١، جـ١، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧]،[٢٣] إذ يرون أن دوافعه في اعتناق الإسلام كانت سياسية [٥، ص ٨٠].

وعلى الرغم من هذا، فإن كلا من لات دايور وابن أخته (أو ابن أخيه) آلبوري انجاي Alburi N'Jie، سلطان (بور Bur) الجولوف، الذي اعتنق الإسلام أيضا على يد الشيخ مابا، ظلا نشطين في خدمة القضايا الإسلامية حتى وفاتهما [١٦، ص ٣٤٦؛ ١، جـ١،

---

٢٣ ومصدر كوين [١، جـ١، ص ٢٤٧، حاشية ٤٩] هو [٨، ص ٥٧٨].

ص ٢٤٧]. وقد دافع الشيخ مابا عن لات ديور أمام الفرنسيين، طوال حياته، ومثال ذلك ما كتبه عام ١٨٦٤م إلى حاكم السنغال الفرنسي قائلا بأنه ولات دايور سيظلان صديقين مادام لات مسلما وراغبا في البقاء معه ليمارس شعائر دينه الجديد.

وصلت حركة جهاد الشيخ مابا إلى قمتها عام ١٨٦٤م، عندما اعترف به الفرنسيون إماما وحاكما شرعيا على بادبو وسالوم، وفق اتفاقية وقعها مابا والفرنسيون وحكام كايور وباول Baol وجولوف وسين. ومنح الفرنسيون حق إقامة محطات تجارية على طول نهر سالوم، ووافق جميع الأطراف على احترام السيادة والوحدة الإقليمية لأراضي جيرانهم. واعترفت الاتفاقية بنجاح الجهاد، وأعطت مابا فرصة لالتقاط أنفاسه لتقوية وتعزيز دولته [٥، ص ٨٣؛ ١، جـ١، ص٢٤٧؛ ١٥، ص ٤٩]. [٢٤] فهي اتفاقية لتنظيم التجارة بمنطقة سنغامبيا في المقام الأول. ولم يعترف فيها الشيخ مابا بالادعاءات الفرنسية بأن لهم حقوقا سياسية في المنطقة. ولذا نجده يخبر الجنرال الفرنسي فيدهيربي بأنه لا يرى سببا في تدخل فرنسا في شؤون شعوب سنغامبيا. واعتبر الفرنسيين نصارى معارضين للمسلمين، وذهب في خطاب له موجه إلى فيدهيربي عام ١٨٦٤م بأنه يعتبر أن من واجبه شن حرب على الوثنيين الذين يعيقون سبيل الدعوة الإسلامية في المنطقة [٤، ص ١٤٢]. [٢٥]

وافق الفرنسيون في البداية على أنشطة مابا، ووجدوها أفضل وسيلة لتوحيد شعوب المنطقة سياسيا، حتى ولو كان نظام الإدارة الذي أقامه إسلاميا؛ أما الذي لا يمكنهم قبوله هو نوايا مابا في القيام بحركة جهادية تدخل أهل سنغامبيا في الإسلام. ويعتقدون أن هذا المشروع سوف يسهم في انهيار الحركة التجارية، التي كانت السبب الرئيس وراء مجيئهم إلى سنغامبيا. والأمر الأكثر أهمية شعورهم بأن مابا لو أصبح قويا جدا في المستقبل، فسوف ينجح في طردهم من سنغامبيا، ومن ثم يضع نهاية لمطامعهم الاقتصادية والإمبريالية

٢٤ ويشير كلين [٦، ص ٨٣] هنا إلى كتابات بنت لا بريد - حاكم السنغال - التي تعكس وجهة نظر الإدارة الفرنسية بالسنغال تجاه الشيخ مابا، فيقول إنها كانت تخشاه، وتتحين الفرص لإيجاد المبررات للدخول معه في حرب للقضاء عليه وعلى حركته، وتصفه بأنه صاحب عقيدة فاسدة !! وأنه لص مثل التيدو.

٢٥ وعبارة كلارك [٤، ص ١٤٢] هي: «بأنه يعتبر من واجبه شن حرب على الوثنيين في محاولة لإدخالهم في الإسلام. . . » والمعروف أن الجهاد في الإسلام لايكره أحدا على الدخول في الإسلام. ومصدر كلارك هنا هو [١٧، ص ٨٥].

في غربي إفريقية [٤ ، ص ١٤٢].

تجدر الإشارة هنا إلى أن زخم الاستياء والطموحات التي أطلق الجهاد لها العنان كانت قوية جدا إلى الحد الذي جعل الشيخ مابا نفسه لا يستطيع السيطرة عليها تماما. وتشير بعض الدلائل إلى أن مابا تمنى في هذه الفترة توقف القتال. فقد كتب رسالة إلى قائد الوحدة العسكرية بكونج سنة ١٨٦٤م، أوجز فيها نجاحاته في تحطيم الوثنيين المزعجين في تلك الممالك، وخططه في تهيئة الأجواء لإحلال سياسة أمنية مكان سياسة النهب والسلب والخطف، ليتمكن التجار من ممارسة أعمالهم في هدوء، وذكر أنه أمر جميع رجاله بأن يزرعوا الأرض ويحصدوا، ليعلم العالم إن كان رجلا صادقا أم لا [١ ، جـ١ ، ص ٢٤٧]. [٢٦]

وطبقا لروايات أسرة با Ba فإن لات دايور هو الذي حرض مابا على قطعه العلاقات مع الفرنسيين ونقضه الاتفاقية المبرمة معهم، حين غزت قوات من المسلمين الجولوف سنة ١٨٦٥م [١ ، جـ١ ، ص ٢٤٧]. [٢٧] وأثار التحالف بين حاكم كايور السابق، الواضح الطموح، ومسلمي بادبو الأقوياء، أثار منذ البداية مخاوف الفرنسيين، الذين بدأوه آنذاك يستمعون إلى إشاعات تقول بأن مابا يتفاوض لعقد اتفاقيات مع ترارزة - مورينايي - الضفة الشمالية لنهر السنغال، ومع تورودبي - توكولور - فوتاتورو، مؤيدي الشيخ الحاج عمر الفوتي المتحمسين. وكانت هذه المحاولة من الشيخ مابا للتحالف مع قوى السنغال الإفريقية الرئيسة تعطي أملا كبيرا في توحيد جميع أقاليم سنغامبيا في وحدة دينية، ولكن، وفي الوقت الذي كانت تطرح فيه هذه المقترحات، لم تلبث أن اندلعت ثورة في مركز حركة المرابطين - المسلمين - وسط ماندنجو بادبو. فأجبر مابا على العودة إلى جامبيا لمعالجة الوضع، ولم يعد ينجح بعد هذا في القبض على زمام المبادرة مرة أخرى [٦ ، ص ٤٠ ؛ ١ ، جـ١ ، ص ٢٤٧].

أثير الفرنسيون إثارة كاملة في هذا الوقت لما رأوه من تهديد لمصالحهم، ولذا قاد بنت لابريد Pinet - Laprade - حاكم السنغال من قبل فرنسا - حملة في نوفمير من عام ١٨٦٥م، مكونة من ثلاثة آلاف جندي أوروبي وعشرة آلاف جندي من الحلفاء الأفارقة، سار بهم

---

٢٦ ومصدر كوين [١ ، جـ١ ، ص ٢٤٧ ، حاشيةرقم ٥٢ ، ص ٢٥٧] هو [١٨ ، ص ص ٣١ - ٣٣].
٢٧ ومصدر كوين [١ ، جـ١ ، ص ٢٤٧ ، حاشية ٥٣] هو [٨، ص ص ٥٧٠ - ٥٨٠].

إلى بادبو ليحطم معاقل وحصون المسلمين، بما في ذلك نيورو - عاصمة مابا - وأكثر من ثلاثين مدينة أخرى، في الوقت الذي كان فيه المحصول قد حصد لتوه. وكان من نتائج هذه الحملة أن جرح قائدها جرحا بليغا، وفصل حرس المؤخرة عن بقية الجيش مرة على الأقل، وقتل أو جرح ربع القوات الأوروبية التي عانت معاناة شديدة من الحمى [٤، ص ١٤٢؛ ١، جـ١، ص ٢٤٧].

لم يتوقف المسلمون في التدافع نحو ساحات الجهاد، وللمرة الثانية. فقد تضخمت صفوفهم بالمجندين من كل أنحاء سنغامبيا خلال شهور قليلة، وأعيد بناء نيورو، وكانوا في شوق شديد لبدء الغارات في الشمال إلى أبعد من كايور، وذلك للمرة الثانية. وعلى الرغم من أن الجواسيس الفرنسيين قد أوضحوا أن مابا نفسه كان يتوخى الحذر علانية، ورغب في تجنب المزيد من الصدامات مع الفرنسيين، إلا أن وجهة نظره قد رفضت [١، جـ١، ص ٢٤٧].[٢٨]

أرسلت حملة فرنسية أخرى إلى سالوم وبادبو في مارس عام ١٨٦٧م، فأحرقت القوارب والمحاصيل والقرى، وقتلت كثيرا من المواطنين ولم يجدوا الشيخ مابا، فقد دخل سين مع لات دايور ومجموعة من المحاربين، في يوليو من تلك السنة. وكان سكان سين من السيرير المتضامنين تضامنا قويا ضد المسلمين، وبالتالي لم يجد مابا هنا جماعة إسلامية تسانده [١، جـ١، ص ٢٤٧]، وخاض معركة مع سوننكة صومب [١٦، ص ١٦٩]،[٢٩] وهجره صاحبه لات دايور، فقتل الشيخ مابا - يرحمه الله - وأرسل حاكم سين رأسه إلى الفرنسيين ببلدة جوري Goree، كدليل على أنه بعد سنين من الإشاعات الزائفة فقد مات أخيرا. ودفن جثمانه بمدينة جوسوز Gossos بالقرب من سوكوني Sokone، على الحدود بين نيومي وسالوم. وأصبح ضريحه مزارا لمحبيه إلى يومنا هذا [١، جـ١، ص ٢٤٨؛ ٦، ص ٤٠].[٣٠] وأصبحت معركة صومب من معارك البطولة الخالدة والفداء

٢٨ ومصدر كوين [١، جـ١، ص ٢٥٧، حاشية ٥٤] هو [١٩].

٢٩ عرفت هذه المعركة بـ« معركة صومب « [١٦، ص ١٦٩].

٣٠ ومصدر كوين الأول [١، جـ١، ص ٢٥٧، حاشية ٥٦] هو [٢٠]. Ousman Jamma Ba, oral interview, Bathurst (1965). ويذكر كوين هنا أن ضريح مابا أصبح مكانا يحج إليه المسلمون. وهذا قول مشكوك فيه، لأن المسلمين لا يعرفون غير مكان واحد يحجون إليه، هو الكعبة المشرفة بمكة ومايتبعها من مناسك حج بمنى وعرفات ومزدلفة.

[٥، ص ٩٠ – ٩١]. [٣١]

وعندما بدأ الأوروبيون في كتابة تاريخ هذه المنطقة في هذه الفترة الزمنية، اعترفوا بدور الإسلام في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وأشاروا إلى دور أحمد بن الحاج عمر الفوتي ومابا وساموري توري ورابح بن فضل الله ومحمد الأمين وغيرهم [٢١، ص ص ٤٨٨ – ٤٨٩].

معوقات حركة مابا الجهادية الإصلاحية

تضافرت عدة عوامل أدت لفشل حركة مابا الجهادية في إقامة نظام حكم إسلامي إصلاحي كامل في منطقة سنغامبيا. فقد كان كسب الوقت لصالح الحركة أمرا في غاية الأهمية. فعندما أسس الشيخ مابا سلطته في بادبو وسالوم، لم تبق إلا سنوات ثلاث قبل وفاته، واستهلكت هذه السنين القليلة في العمليات العسكرية المتتالية، بينما كانت الحركة بحاجة ماسة إلى تأمين نفسها ضد مؤامرات أعدائها في الداخل والخارج منذ أول يوم، وإقامة المؤسسات الإدارية لتنظيم شؤون الدولة والدعوة على أنقاض الأنظمة الإدارية الوثنية التي حطمت [٥، ص ص ٨٣، ١٠١؛ ١، جـ١، ص ٢٤٨].

ولعل أهم سبب وراء انهيار حركات الإصلاح الجامبية هو فشل القيادة، إذ فقدت السلطة المركزية القوية حتى أثناء حياة الشيخ مابا. وكثيرا ما أبدى مسلمو جامبيا عدم ثقتهم في السلطة. ففي سنة ١٨٦٢م أعلن مسلمو نيومي بجلاء أنهم لا يريدون «ملوكا» آخرين.

وحاول مابا نفسه، وفي مناسبات كثيرة، أن يتجنب ممارسة السلطة الزمنية، ففي سنة ١٨٦٢م مثلا، أعلن اعتزاله السلطة، عندما كان آخر السوننك الهاربين من بادبو يعبرون النهر إلى كيانج. وأراد العودة إلى العمل في مزرعته ومدرسته [٦، ص ص ٣٧ – ٣٨؛ ١، جـ١، ص ٢٤٨]. وقد سبقه إلى اتخاذ مثل هذا الموقف الشيخ عثمان بن فودي، ولكن الظروف التي كانت تحيط بالشيخ عثمان تختلف عن تلك التي كانت تحيط بالشيخ مابا خاصة مشكلة الوجود الاستعماري في سنغامبيا.

٣١ وقد أشار كلين [٥، ص ص ٩٠ – ٩١] إلى أن كثيرا من تفاصيل أحداث هذه المعركة التاريخية الهامة، توجد في أرشيف جمهورية السنغال بداكار.

لا شك أن تردد مابا في ترك دراساته في بلاد الجولوف والعودة إلى بادبو، وطول مدة امتهانه التدريس هناك خلال العشر سنوات بعد لقائه بالحاج عمر الفوتي، تشير إلى أنه كان يجد نفسه في التربية والتعليم أكثر مما يجدها في صفوف الثوار المحاربين والإدارة السياسية وقيادة دفة الحكم. لقد اتخذ هذا الموقف العنيف عندما بلغ الثالثة والخمسين من عمره، وعندما بدأت الدولة في الانهيار الفعلي. وفوق هذا كله يقال إنه لم يحارب ببدنه أو يحمل سلاحا [٦، ص ٣٧]. ما كان ينبغي أن يفعل هذا في الوقت الذي كان يطلب منه كل مسلمي جامبيا المساعدة، وفي الوقت الذي يحاول فيه السوننك المنفيين عن مادبو أن يعودوا إليها [٦، ص٣٨].

وعلى الرغم من أن جماعة الشيخ مابا الإسلامية مكونة من جميع قبائل المنطقة، إلا أن القوة الضاربة كانت للولوف. وعندما استمر الجهاد لمدة أربع سنوات، وانتشر من ضفاف النهر إلى الشمال أخذت العداوات الكامنة بين عناصر حركته تطفو إلى السطح. فالشخصية الولوفية لقيادة الشيخ مابا وكوادره أصبحت مبغوضة عند الماندنجو على ضفتي النهر.

عاش الماندنجو في ظل تهديد التوسع الولوفي منذ عدة أجيال، ولذا نظروا إلى مابا نفسه على أساس أنه من الغرباء القادمين من الشمال لابتلاع مناطقهم [٦، ص ٤٠؛ ١، جـ١، ص٢٥٠]، ولم تقبل كل المدن الإسلامية في إقليم بادبو سلطته، ومما يدل على هذا، أنه في وقت مبكر من بداية الجهاد، اشترك ثلاثة من قادته في مقاطعتي سانديال وساباخ في شرقي بادبو في حركة تمرد مناوئة لمابا، عندما كان يخوض حربا في الشمال، وهؤلاء القادة هم سامبو عثمان توري وسيكو - شيخو - ديوب وманديا Mandiaye خوريدنا. وكان والد توري وجده في بادبو، فقال إنه من الخطأ أن يأتي غريب ليقود الجهاد هنا. وتحرك القادة الثلاثة المتمردون مع مجموعة من المحاربين، تحركوا عبر سابا وسانجال إلى أن دخلوا سالوم. وهزموا في النهاية، وقتل كل من توري وخوريديا. وعاد أتباعهم فيما بعد إلى بادبو، لينضموا إلى جيش الشيخ مابا [١، جـ١، ص ٢٥٠].[32]

وفي إحدى الأوقات الحرجة، والشيخ مابا في قمة الانهماك في القيام بمهامه

---

٣٢ ومصدر كوين هنا، هو [٨، ص ٥٧٤؛ ١٨].

الجهادية، وعندما كان يتفاوض مع الفرنسيين والقادة المسلمين في السنغال للسيطرة على جميع غربي سنغامبيا، سنة ١٨٦٥م، أجبر على الانسحاب راجعا إلى ضفاف نهر الجامبيا، بسبب وجود تمرد في سالوم، امتد إلى مجموعة من مسلمي بادبو. وكان المتمردون متذمرين من متطلبات استمرارية الجهاد، الذي وصل في تلك الأوقات إلى أبعد من نهر جامبيا، وطلب من الفرنسيين حفظ الأمن والسلام اللذين حطمهما طموحات قادة المجاهدين البعيدة المدى [١، جـ١، ص ٢٥٠].

وتضاعفت الانشقاقات الخطيرة التي وقعت داخل الحركة قبل وفاة الشيخ مابا، تضاعفت بعد سنة ١٨٦٧م، أي بعد وفاة الشيخ، إلى أن بدا أن الهدف الأساسي من الجهاد عند بعض الناس مجرد صراع على السلطة، يعني أن بعض من الأتباع لم يكونوا على مستوى زعيم الحركة من حيث القدرة الإدارية والدعوية وبعد النظر، ولذا لم يتمكنوا من تطوير تعاليمه وسد الثغرة التي تركها. وحدث هذا كثيرا في تاريخ الزعماء المؤسسين للحركات الإصلاحية، إذ بموتهم تبدأ الحركة في الموت البطيء. والأدلة على هذه الحقيقة التاريخية ما حدث لحركة مابا بعد موته.

مات مع الشيخ مابا أخوه عثمان، الذي كان من المفترض أن يخلفه في السلطة. أما أحد إخوته الآخرين، المدعو عبده با Abdu Ba، فيقال إنه تاه أو فقد في داخل البلاد لعدة أيام بعد المعركة، وعندما عاد، وجد أخاه الأصغر مامور انداري قد نصب إماما - أي سلطانا - على بادبو [٦، ص ٤١؛ ١، جـ١، ص ٢٥٠].[٣٣] وبصرف النظر عن تدريبه العلمي الطويل وخبرته كقائد في نيورو أثناء فترة نشاط أخيه مابا، إلا أن مامور لم يتمكن من المحافظة على القوة الدافعة للحركة أو وحدتها. فلم يلبث أن واجه تحديا من أقاليم شرقي بادبو: ساباخ Sabach وسانجال، قاده ماتار Matar كالا، الذي حاول في وقت مبكر من تاريخ الحركة أن يؤسس حركة مناهضة لما أسماه بالباءات الغرباء (Alien Bas). ونجح مامور في هزيمة كالا، ولكن يبدو أنه لم يستطع فرض سلطته في سالوم، أي في الجهة الشمالية، حيث أعاد الفرنسيون السلطات التقليدية القديمة، وأخذ يتولى السلطة هنا من يرشحونه هم. وتحطمت محاولة إعادة غزو سالوم ونيومي سنة ١٨٧١م، وانتهت إلى غارات غير منظمة، فعاد مامور إلى با دبو.

---

٣٣ ومصدر كوين هنا، هو [١٨].

وبدأ جيل القادة الشبان الذين تولوا مهام إدارية خلال حياة الشيخ مابا، بدأوا يتطلعون إلى مزيد من القوة لأنفسهم. ومثال ذلك أن فودي كابا انفصل عن مامور، ثم أخذ في التصرف مستقلا على الضفة الجنوبية لنهر جامبيا، ولعب دورا كبيرا في سياسة المنطقة [١٥، ص ص ٤٣، ٤٩، ٥٨، ٥٩]. وبدأ بيرام سيسي في تحقيق قيام دولته الخاصة بشرقي بادبو ومقاطعات كايمور بإقليم سالوم. وحاول مامور، بمساندة أخيه الصغير سعيد ماتي با Said Matti Ba ومعظم القيادات الإسلامية ببادبو، أن يسحق حركة تمرد بيرام. فنشأ نتيجة لهذه المحاولة صراع داخلي طويل بين أبناء الحركة الأم. فتحالف بيرام مع القيادة السوننكية بسالوم وسين، وأعلن أن حربه مع مامور لن تتوقف إلى أن يقضي أحدهما على الآخر قضاء مبرما [٥، ص ص ١٠١ - ١٠٢؛ ١، جـ١، ص ص ٢٥٠ - ٢٥١].

وخلع مامور من منصبه عام ١٨٨٠م على يد الأوروبيين والمسلمين المتمردين بحجة أنه رجل ضعيف طاعن في السن، ضلله مستشاروه. فقد عاقب الحاكم البريطاني المساند لبيرام ماموار بعنجهية، بحجة أنه المسؤول عن الاضطرابات التي وقعت على ضفتي النهر. وواجهت سلطة مامور تحديا من داخل أسرته عام ١٨٨٤م، من أخيه سعيد ماتي، الذي أدعى بأن ماموار عُين فقط كوصي إلى أن يصل سعيد ماتي إلى سن الرشد [٥، ص ٩٧؛ ١، جـ١، ص ٢٥١]. [٣٤] ورفض خلافة مامور انداري كل من: مامور سامبا دايو باي وماتار كالا - اللذان كانا حليفين لشيخو عثمان دايوب - ولكنهما هزما في معركة سنة ١٨٦٨م على يد مامور انداري ومؤيديه [٥، ص ٩٧].

انفجرت العداوات والخصومات بين جناحي الأسرة، فشكل مامور حلفا مع بيرام وملك سالوم. وتمكن سعيد من السيطرة على كل غربي بادبو سنة ١٨٨٦م. وعندما توقف القتال بين الفريقين إثر وساطة بريطانية عام ١٨٨٧م، تقاسم سعيد وبيرام إقليم بادبو بينهما، ولم يبق لمامور سوى مدينته الخاصة، نيورو، ومنحه الجانبان ضمانا على حياته الشخصية.

لم يدم السلام طويلا، إذ غزا ماتي إقليم سالوم خلال عام واحد، ولكن هاجمته تجريدة عسكرية فرنسية وطردته إلى خارج المنطقة، حيث سلم نفسه للبريطانيين، وذهب ليعيش على الضفة الجنوبية للنهر إلى أن توفي عام ١٨٩٧م [١٥، ص ص ٥٦ - ٥٧؛ ١،

---

٣٤ ومصدر كوين [١، جـ١، ص ٢٥١، حاشية ٦٨] هنا، هو [٢٢].

جـ١ ، ص ٢٥١]، وأعلن الفرنسيون الحماية على بادبو ، ومنحوا مامور سلطة في المقاطعات الشمالية المتمركزة حول نيورو ، بينما ظل بيرام سيسي يحكم منطقة جنوبي بادبو . وتورط في الانشقاقات التي وقعت في حركة مسلمي بادبو معظم مسلمي سنغامبيا أيضا . فقد كان المسلمون السنغاليون على اتصال متكرر مع طرفي النزاع في حرب بادبو الأهلية . وانضم إلى سعيد ، أثناء استمرار الحرب بين سعيد ماتي وبيرام سيسي إلى الثمانينات من القرن التاسع عشر ، انضم إليه آلبوري انجاي Alburi N'Jie ، ملك الجولوف ، الذي كان أحد حواريي الشيخ مابا ، بينما تحالف بيرام مع مسلمي وسوننكة سالوم بالتناوب . وجاء عبدول بوباكير Abdul Bubacare ، إمام فوتا تورو ، جاء عام ١٨٨٦ م إلى بادبو ، على رأس جيش ، في رحلة استغرقت عشرين يوما بالحصان ، ليتوسط في النزاع بين الطرفين . ويروى أنه قسم قواته إلى نصفين ، أرسل نصفا إلى بيرام ، والنصف الآخر إلى سعيد ، مؤملا في كبح جماح الفريقين . ومع هذا ، هاجم سعيد بيرما عندما كان الإمام بوباكير في معسكر الأخير ، واضطر الإمام للدفاع عن نفسه بوساطة فرقة الجيش الذي كان معه . وكسب سعيد المعركة ، وعاد الإمام إلى وطنه ، وأحرق عدة قرى في طريقه [١ ، جـ١ ، ص ٢٥١].

حافظ القادة ببادبو على علاقات المسلمين على الضفة الجنوبية للنهر أيضا ، ويقال إن خمسة آلاف محارب نقلوا عبر النهر إلى قنجور Gunjur في إقليم كومبو ، عام ١٨٧٢ م ، وزار مامور بنفسه الضفة الجنوبية للنهر ، لفترة قصيرة ، سنة ١٨٧٧ م ، معلنا مساندته لفودي كابا في حربه ضد الفلبي هنا .

لقد قسمت الخصومات بين قادة البلاد المجموعات الإسلامية على نفسها على المستوى المحلي أيضا ، إذ أثارت أفراد الأسرة الواحدة والمجموعات القروية ضد بعضهم البعض . ففي سابا – مثلا – فإن القائد السياسي آنسو جانتي Ansu Jante ، كان من أتباع بيرام سيسي ، بينما كان أخوه الأصغر سنا Sina مؤيدا لسعيد ماتي . فعلى الرغم من أن آنسو كان صاحب السلطة في القرية ، إلا أنه كان يحظى باحترام من الناس أقل من أخيه . تقول إحدى الروايات : «لا يسمع له أحد في القرية : وليعزز آنسو موقفه في القرية ، أرسل إلى ناصره وحاميه بيرام سيسي ليساعده في كسب حب الناس ، » وهزمت القوات التي أرسلها إليه بيرام ، ومات معظمها . ودخل سعيد ماتي قرية سابا ، وقتل آنسو . وأصبح سنا ، الأخ

الأصغر لآنسو، قائدا مكانه [١، جـ١، ص ٢٥٢].

تكشف لنا هذه الروايات المظاهر الدنيوية التي سادت في الأيام الأخيرة للهيمنة الإسلامية على طول نهر جامبيا [٥، ص ٩٨؛ ١، جـ١، ص ٢٥٢]. [٣٥]

تذكر رواية لأسرة با أن لات دايور حاول التوسط في النزاع بين سعيد وبيرام سنة ١٨٨٣م، طالبا من الفريقين نبذ خلافاتهم المناقضة لروح الإسلام. ولكن أخذ الزعيمان في سرد خلافاتهما الماضية وطموحاتهم الشخصية، ولذا فشلت الوساطة، فاستمرت الحرب بين الفرقاء.

ومع نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر، توقف إنتاج الفول السوداني عبر البلاد الجامبية، وانتشرت المجاعة على نطاق واسع. وكتب القائد السياسي لمدينة سواري كوندا، الميناء النهري الرئيس والمدينة التجارية الإسلامية بإقليم بادبو، كتب عام ١٨٨٦م إلى السلطات في باثورست طالبا الطعام لأسرته. وذكر أن سكان المدينة لجأوا إلى الصيد وأكل ثمار الأشجار غير المألوفة في الطعام، إذ لم يعد الأوروبيون يتاجرون في المنطقة، وحطمت الحروب المحاصيل الزراعية الغذائية [١، جـ١، ص ٢٥٢].

وهكذا وقعت الحركة بعد وفاة مابا تحت سيطرة العسكريين بدلا من أن تقع تحت سيطرة علماء الدين أو رجال الدولة الإداريين. وأضحت الحرب منهج حياة للجيل الثاني من الحكام المسلمين. وتتمثل هذه الظاهرة فيما كتبه فودي كابا إلى الحاكم البريطاني، قائلا: منذ ذلك الحين الذي عرفت فيه أنني رجل، أصبحت الحرب مهنتي [١، جـ١، ص ٢٥٢]. [٣٦] واستمر كابا، مع ذلك، يحارب بصفة رئيسة أولئك الذين كانوا خارج المجتمع الإسلامي، أي الوثنيين والسوننك والأوروبيين. وأخذ في بقية حياته في شن الغارات على مستوطنات الجولا الفلبي الوثنية والجوارا تجكو، الذين كان إسلامهم سطحيا، وكتب سنة ١٨٨٧م، قائلا: «لا شأن لي بالبيض - الأوروبيين» [١، جـ١، ص ٢٥٢].

وفي الجانب الآخر، تحول مسلمو الضفة الشمالية إلى الداخل ضد أفراد آخرين من المجتمع الإسلامي. وليتمكن بيرام سيسي ومامور انداري من هزيمة غريمهما سعيد ماتي،

---

٣٥ ومصدر كوين هنا، هو [٨، ص ص ٥٧ - ٨٩].
٣٦ ومصدر كوين هنا، هو [١٥، ص ٤٥٢].

حالفا قادة سين الوثنيين والسوننكة المطرودين من بادبو. وعندما أعلن الفرنسيون حمايتهم على الدولة عام ١٨٨٧م، واختاروا بيرام سيسي زعيما على المقاطعات الجنوبية، عين بيرام بدوره جاتا سيلانج جامه Jatta Selang Jammeh، أحد أفراد الأسرة السوننكية الحاكمة في إلياسا Illiassa، حيث سبق وأن طرده الشيخ مابا نفسه من البلاد قبل خمسة وعشرين عاما.

على الرغم من هزيمة مابا على يد السوننكة بكونيلاّ، وفقد حياته في حربه مع ملك سين، فإن مواجهته الحاسمة لم تكن مع الوثنيين الأفارقة، ولكنها كانت مع الأوروبيين، الذين كانوا يعادون أي إمكانات وحدة إفريقية محلية، كما كانوا معادين لظهور أي نظام سياسي من داخل دول الجامبيا أكثر شمولية وعقلانية. وعلى الرغم من حقيقة أن مابا حاول أن يتعايش سلميا مع البريطانيين، ويتجنب أي صدام مباشر مع الفرنسيين، إلا أن تضارب المصالح والمفاهيم، جعل تحقيق ذلك أمرا متعذرا [٦، ص ٣٩؛ ١، جـ١، ص ٢٥٢]. [٣٧]

تذكر المصادر أن الشيخ مابا اتهم الفرنسيين بالتحالف مع الوثنيين ضد المسلمين المؤمنين، وحث الفرنسيين على قبول مهمته المقدسة ومقاصده السياسية - التي لا تتعارض في الحقيقة مع رغبة الأوروبيين في السلام والأمن وتأمين حرية الطرق التجارية، كما يقول [٦، ص ص ٣٩ - ٤٠]. وكان مابا محقا في اتهامه، لأن الأوروبيين لم يخفوا هذه السياسة خلال تاريخ وجودهم في إفريقية، فهي سياسة عامة ساروا عليها مع جميع الحركات الإسلامية الجهادية في البلدان الإفريقية عامة وغربي إفريقية بصفة خاصة، فهاهم الفرنسيون يشجعون قبائل البمبارا الوثنية في تمردهم على سادتهم المسلمين التكولور. فقد أشاد الجنرال جاليني بسياسة مساندة البمبارا وغيرهم من الأقليات المناوئة لدولة التوكولور، بينما يتظاهرون في ذات الوقت بصداقة سطحية مع أحمدو سلطان سيجو [٢١، ص ٤٤٥]. وأقنعت مثل هذه السياسة جاليني، الذي كان في ذات الوقت يوجه السياسة الفرنسية في السنغال في الأعوام ١٨٧٩ - ١٨٨١م، لتسرع في انهيار الدولة التكلولورية، فاختار البمبارا، وخصهم بصداقته للقيام بهذا الدور، لأنهم غير مسلمين، ولأنه يرى أن الإسلام هو العدو اللدود لعمل فرنسا العظيم، أي التوغل إلى قلب إفريقية [٢١، ص ٤٤٥؛ ٢٣، جـ١، ص ٥٦]. [٣٨] وكانت قناعات الفرنسيين العامة أن غير

---

٣٧ وانظر في هذا مراسلات الشيخ مابا مع فيدهيربي عند: كلين [٥، ص ص ٨٠ - ٨٢].
٣٨ وانظر البروفسير جيفورد وروجر لويس [٢١، ص ٤٤٥].

المسلمين أكثر قابلية لتشرب الأفكار والثقافة الفرنسية من مخالفيهم المسلمين [٢١، ص ٤٤٥]. [39]

رأى الأوروبيون أن الوضع الراهن، على الرغم من عدم قناعتهم به، أفضل من قيام دول ثيوقراطية (دينية) قوية، وذلك نسبة لصغر حجم مستوطناتهم وضعف دفاعاتها. وعندما أعوزت الإنجليز الوسائل التي يمكنهم بها انحراف حركة المرابطين المسلمين عسكريا، لجأوا إلى ممارسة الضغوط غير المباشرة، كالاقتصادية، والدخول في عمليات عسكرية محدودة المدى، في محاولة لإعاقة أو إحباط الثورة [١، جـ١، ص ٢٥٣]. فمثلا، عندما اندلعت الحرب بين المسلمين والسوننك بالمنطقة، وأثر ذلك في مصالح البريطانيين بالمناطق التي يدعون ملكيتها، أرسلوا حملة عسكرية من مستعمرتهم - الواقعة على جزيرة صغيرة عند مصب نهر جامبيا - لاستتباب الأمن في المنطقة ومعاقبة السوننك المغيرين. وعندما أحرقت القوات البريطانية مدن المسلمين أيضا أثناء عملياتهم الحربية، طلب مابا من الغزاة أن يتجنبوا مستقبلا مناطق المسلمين، وطلب البريطانيون غرامات باهظة من الحكام السوننك ببادبو، وتركوا المنطقة في حالة من الفوضى أعظم مما كانت عليه من قبل [٦، ص ٣٧].

وعندما انتقل مركز نشاط المسلمين إلى شمالي الجامبيا سنة ١٨٦٤م، وجد مابا نفسه في مواجهة مباشرة مع السلطات الفرنسية على نهر السنغال وفي جوري Goree، حيث كانت هذه السلطات تتبنى سياسة عدوانية لتوسيع نطاق تجارتهم ونفوذهم في المناطق الزراعية بين النهرين، ويواصلون بحثهم عن طرق تجارية مناسبة ومريحة توصلهم إلى وادي النيجر. ويرون أن حركة الشيخ مابا تشكل حجرة عثر أمام توسع نطاق تجارتهم، ولذا تغيرت مشاعرهم تجاه الحركة. فقد كتب فيد هيربي سنة ١٨٦٤م، قائلا: «إن تحطيم ملوك التيدو شيء جيد في حد ذاته؛ ولكن يبقى مابا طاعونا أسوأ من ملوك التيدو، نسبة للطرق التي استخدمها» [٥، ص ٧٩؛ ٩، ص ٣٤].

إن الذي تسبب في تبدل قلب فيدهيربي تجاه مابا هو تحالف الأخير مع لات دايور. وكان لات دايور، مثل ماكودو، معارضا لمد الفرنسيين لخط تلغراف بالمنطقة ليربط بين

---

٣٩ وانظر جيفورد وروجر [٢١، ص ٤٤٥].

مدينتي سانت لويس وداكار، وعقدوا معه اتفاقية سنة ١٨٥٩م، سمح لهم بموجبها بمد الخط عبر أراضيه. ولكن عندما تصدى لفرقة عسكرية فرنسية وهزمها سنة ١٨٦٣م، تمكن الفرنسيون من طرده من كايور في الشهر التالي، بدعوى أنه نقض اتفاقية عام ١٨٥٩م، فهرب إلى سين [٥، ص ص ٧٩ - ٨٠؛ ٤، ص ١٤١].

أما كومبا اندوفيني Coumba N' Doffene، الذي بدأ يشعر بلسعة غارات مابا، فقد خشي إثارة عداوة السلطة الفرنسية، ولذا كتب إلى غوري طالبا من الفرنسيين أن يسمحوا ببقاء لات دايور في سين [٥، ص ٨٠]. ولم يمنح الإذن المطلوب، ولذا أجبر هذا الملك السابق أن يبحث عن مأوى في أي مكان آخر [٥، ص ٨٠]. وكان رد فعل مابا تجاه طلب طرد لات دايور مختلفا جدا، إذ قال: «لقد اعتنق لات دايور الإسلام، ويعيش معي، ولكن ليس لنا مصالح مشتركة، فإذا أراد أن يمكث معي من أجل أداء السلام وقراءة القرآن، فسوف نكون أصدقاء، لأني لا أحب غير الحق» [٤، ص ١٤١؛ ٢٤، ص ٢٦؛ ٦، ص ٨٠].

على الرغم من الفكرة الشائعة بأن الحاكم الفرنسي فيدهيربي كان متعاطفا إلى حد ما مع تطلعات وطموحات المسلمين بالسنغال، فهناك دليل واضح بأن السياسة الفرنسية كانت معارضة تماما لحركة الشيخ مابا منذ بدايتها، إذ اقترح الحاكم الفرنسي بالسنغال القيام بعمل عسكري مشترك مع البريطانيين ضد مسلمي الجامبيا في مطلع عام ١٨٦٤م، وأشاروا إلى أن الوعود المقطوعة لهم من قبل المسلمين بحسن النية، تخفي وراءها مخططات ومشاريع طموحة يتسترون بها تحت عباءة الدين [٦، ص ٤٠؛ ١، جـ١، ص ٢٥٣]. وتبرز دراسة المراسلات التي دارت بين مابا وفيدهيربي الهوة السحيقة بين الرجلين [١، جـ١، ص ٢٥٣؛ ٥، ص ص ٨٠ - ٨٢؛ ٦، ص ٣٩].

وليس غريبا أن تكون الاتفاقية التي أبرمت عام ١٨٦٤م بين الزعيم الإسلامي وفيدهيربي، والتي اعترف فيها بمركز مابا في بادبو وسالوم، جوفاء منذ البداية، لأن فيدهيربي، الذي يمثل السياسة الفرنسية، لا يرى مابا إلا مجرد زعيم قرصاني محارب، وأن كلامه عن الحرب المقدسة مجرد غطاء لنهب وسلب المنطقة [٦، ص ٤٠]. وبدا للفرنسيين أن تحالف مابا مع ملوك الدويلات الولوفية محاولة لطردهم من منطقة سنغامبيا، ولذا تحركوا بروح عدوانية شرسة لتحطيم قوة المسلمين (المرابطين) قبل أن يتمكنوا من تأسيس سلطتهم [٦، ص ٤٠].

وكان موقف الفرنسيين من مابا هو ذات الموقف من القادة المسلمين في المنطقة أثناء وجودهم فيها. فعندما أبرموا اتفاقية مع البوري في ١٨ أبريل عام ١٨٨٥م، كانوا لا يثقون أبدا في ولائه لهم، وظلوا يخشون أثره الواسع وسط قومه وأتباعه المسلمين، أمثال نيوخورباي دايو Niokhorbaye Diou في سين [٢٣، جـ١، ص ٦٤]. فقد كان الحاكم الفرنسي بالسنغال – جونيويل Genouille – عام ١٨٨٧م، يعتقد بأنه يعد لنوع من الحشد العدواني ضدهم، وأن ذلك يتمثل في تقديم الخيول للمسلمين المجاورين له مقابل وعود بخدمات عسكرية [٥، جـ١، ص ٦٤]. وكانوا عموما يخشون كل قائد مسلم يتحمس لعقيدته [٢٣، جـ١، ص ص ٤٦ – ٦٥، ٨٢]. [٤٠]

وعلى أية حال، فإن كان مابا قد نجح أم لم ينجح في هزيمة كل الوثنيين في سنغامبيا، إلا أنه لم يتمكن من تجنب الدوران في فلك المطامع التوسعية الفرنسية، أو تجنب مواجهة مدى مدفعيتهم الفعالة [٢٤، ص ٢٦؛ ١، جـ١، ص ٢٥٣]. [٤١]

وظلت العلاقات متوترة بين الفرنسيين ورجال الحركة الإسلامية بعد استشهاد الشيخ مابا. فيذكر المؤرخون الأوروبيون أن أول من تحمل العبء الكامل للسياسات الفرنسية الجديدة كان لات دايور، ووصفوه بأنه أصبح أول زعيم للمقاومة السنغالية ضد الاستعمار الفرنسي [٢٣، جـ١، ص ٦٤]. وعندما كانت حملاتهم تتواصل ضده حتى سنة ١٨٨٥م، أخذ ممثلو الإدارة الفرنسية يخشون من عداء زعيمين حاكمين سنغاليين آخرين لهما أثر وصيت واسع، ظهرت منهما بوادر تشكيل حلف إسلامي ضدهم في ذلك الوقت، أحدهما: آلبوري انجاي (١٨٤٢ – ١٩٠٢م)، الذي تولى الحكم في جولوف كتابع تحت حماية الفرنسيين منذ سنة ١٨٧٥م، واعتنق الإسلام مع ابن عمه[٤٢] لات دايور على يد الشيخ مابا نفسه سنة ١٨٦٤م، فعلى الرغم من نزاعهما المستمر – أي دايور وانجاي – حول قضايا محلية في السياسة الولوفية، إلا أنهما كثيرا ما يتعاونان ضد الانتهاكات والتجاوزات الفرنسية. وعلى الرغم من أن الفرنسيين أبرموا اتفاقية سلام منفصلة مع آلبوري في أبريل من عام ١٨٨٥م، أثناء أزمة التوسع الفرنسي في المنطقة، إلا أنهم لم

---

٤٠ وهنا يذكر هذا المصدر أمثلة على هذه الحقيقة.

٤١ وعن مقاومة الشيخ مابا للتدخل الفرنسي في المنطقة، انظر [٢٤، ص ٢٦].

٤٢ لعله ابن أخيه أو أخته كما يذكر كوين [١، جـ١، ص ٢٤٧].

يكونوا يثقون في ولائه أبدا. وظلوا يخشون أثره الواسع بين عشيرته وجماعته المسلمة أمثال نيوخور باي دايو Niokhorbaye Dio حاكم سين [٢٣، جـ١، ص ٦٤].

أما الرجل الآخر الذي كانت تخشاه الإدارة الاستعمارية الفرنسية هو عبدل بوكار كان أو عبدل بوباكر، زعيم بوسي Bossea، الذي كسب شهرة واسعة لقدرته على التفاوض مع الفرنسيين. فهو مثل آلبوري، استطاع أن يبرم اتفاقية تخدم أهدافه كشرط لتعاونه مع الفرنسيين أثناء أزمة سنة ١٨٨٥م بالسنغال [٢٣، جـ١، ص ص ٦٤ - ٦٥].

كان الاتجاه العام للسياسة الفرنسية في تلك السنين مقاومة مايسمونه بـ «التعصب الإسلامي» بالسنغال، وذلك بالتضامن مع غير المسلمين أو القادة المسلمين غير الملتزمين، أمثال سامبالا، زعيم خاسو، وغيره من زعماء الماندي في السنغال الأعلى، والأخوان مبوقي the Mboge brothers في سالوم، أو امبيك دب انداي M'Backe Deb N'diaye في سين [٢٣، جـ١، ص ٦٥].

سعى الفرنسيون إلي التعاون مع ألبوري وعبدل بوكار ضد الشيخ محمد الأمين، الذي هددت ثورته كثيرا من المستوطنات والسلطات التي أقاموها بالمنطقة، وذلك لأن آلبوري وبوكار كانا أقل خطرا على السياسة الفرنسية من الشيخ محمد الأمين الساراكولي [٢٣، جـ١، ص ٦٥].

إنجازات حركة الشيخ مابا الجهادية الإصلاحية

لقد نجح الشيخ مابا قبل وفاته في أن يضم كثيرا من الدويلات والمجتمعات القروية المستقلة بسنغامبيا في كيان سياسي واحد، واستطاع أن يقطع شوطا بعيدا في توحيد أقاليم: بادبو وريب وسالوم، وأوشك أن يضم سين إلى دولته لولا أن تصدت له القوى الاستعمارية بأسلحتها المختلفة العسكرية والسياسية والدبلوماسية [٧، ص ٨٠؛ ٦، ص ٣٤]. وتعاون الولوف والماندنجو والفلبي - على طول ضفتي النهر - على إقامة نظام سياسي مشترك لأول مرة في تاريخ غربي إفريقية، على أنقاض نظام السوننك المنهار، الذي انعدم فيه الأمن والقانون [٦، ص ص ٣٦ - ٤١].

اتخذ الشيخ مابا مدينة نيورو - بشمالي بادبو - عاصمة لدولته الجديدة، وقسم أقاليم الدولة إلى محافظات، يحكم كل واحدة منها أحد قادة الجهاد العسكري الرئيسيين. وعين

قضاة مسلمين. ولكل قاض مجموعة من الاستشاريين الذين يساعدونه في إدارة الشؤون الإسلامية وإنشاء المدارس الإسلامية، وهم من أهل المنطقة، بينما تكون السلطة العليا متمركزة في يد الشيخ مابا بمدينة نيورو [٥، ص ٩٧؛ ٩، ص ٤٠؛ ٤، ص ١٤٢]. ولكن في الحقيقة والواقع فقد أجبرت الظروف الشيخ مابا بأن يكون متحركا هنا وهناك محاربا، ولذا ضعفت السلطة المركزية [٦، ص٤٠].

كان فرض هذا النموذج لدولة ثيوقراطية (دينية) بالقوة، قد أملته شخصية الشيخ مابا التي جذبت الجماهير المسلمة بسحرها. ولكن عندما حطمت قواته وقوته المؤسسات التقليدية البالية والمعقدة بمساعدة واسعة من المنطقة [٥، ص ٩٢؛ ٦، ص ص ٣٦ ، ٣٨؛ ١٥، ص ص ٤١ – ٤٢]، لم تكن علاقات مابا الشخصية كافية في إيجاد نظام حكومي عقلاني. ونشأ عن هذا الوضع توزيع مشوش وغير متزن داخل تكتلات محافظات هشة. ومع ذلك، وبصرف النظر عن هذه المشاكل التنظيمية، فإن المفاهيم العالمية للقانون ونظام الحكم والدولة، وسع من مدى فهم وإدراك الفكر السياسي على طول النهر، ويشهد على هذا رسائل تجار مدينة باثورست ومنطقة نهر جامبيا المسلمون إلى صحيفة التايمز الإفريقية *The African Times*، سنة ١٨٧٤م، فقد شهد هؤلاء على وجود مجتمع قانونيي قابل للحياة والتطبيق، وأنه الأول من نوعه كما يذكرون [١، جـ١، ص ٢٥٤]. [٤٣]

واعترف الفرنسيون في السنغال بأثر الحركة على الحياة في المنطقة، فقد كتب لابريد في سبتمبر عام ١٨٦٢م، قائلا: أعتقد أن الثورة التي تحققت باسم الحضارة الإسلامية ضد التعسف الوحشي الأعمى لجماعة التيدو سيكون مفضلا لدى المواطنين الولوف الواقعين تحت التعسف ولتأمين التجارة في المنطقة. بل أثارت شخصية مابا إعجاب أعدائه البريطانيين، فقد كتب الحاكم البريطاني بالمنطقة قائلا بأنه لم ير في حياته مثل ذلك الإعداد والتهيئة المهيبة للجند – الذين وصل عددهم عام ١٨٦٥م إلى أكثر من عشرة آلاف جندي – أو مثل ذلك الانضباط الذي ساد قواته. وعرف لدى الإنجليز بأنه ذلك الرجل الذي يحترم كلمته، ولكن وجوده في المنطقة كان يشكل خطرا على استمرارية الوجود الأوروبي بالأقاليم الجامبية. وانزعجوا عندما رأوا أنه على الرغم من اتباعهم سياسة «فرق تسد»

٤٣ ومصدر كوين هنا، هو، كما أشرنا في المتن، [١٨].

فقد قامت دولة موحدة ومسيطرة على ضفتي النهر وعلى تجارته [٦، ص ٣٩]. ولذا أرسلوا حملتين إلى سالوم والمقاطعات الشمالية لمنطقة بادبو، يحرقون المحاصيل الزراعية والقرى ويحطمون ثروة البلاد. وعلى الرغم من أن الفرنسيين لم يتمكنوا من تحطيم قوة المسلمين خلال حياة الشيخ مابا، إلا أنهم أعاقوا حركته بمثل هذه الهجمات، ومنعوا المسلمين من التحرك بحرية في حوض نهر السنغال. ومتى ما التحم المسلمون في معركة مكشوفة مع الفرنسيين، كانت المدفعية الفرنسية تحسم المعركة لصالحهم، ومع هذا كانت خسارة الأوروبيين كبيرة، وينتقل المسلمون إلى جنوبي بادبو في كل مرة ينهزمون فيها، ويعيدون صفوفهم، ويندفعون مرة أخرى إلى الشمال. وأصبحت الضغوط الخارجية تحمل في طياتها صراعات داخل الحركة الإسلامية نفسها، حتى نهاية سنة ١٨٦٥م [٦، ص ٤٠].

وكانت حروب الشيخ مابا شيئا جديدا في سنغامبيا. فقد عرفت المنطقة لفترة طويلة فتنا وتمردات وسطوا ونهبا، ولكنها لم تشهد ثورة وحربا شاملة مثل ثورة وحرب حركة الشيخ مابا. فما قام به الشيخ مابا من تحطيم وتحريق وتخريب وقتل للوثنيين، ليس من أجل الجشع أو النهم، وإنما من أجل الله وفي سبيل الله. فعندما قال له رسول بريطاني بأن مجاعة ستقع نتيجة لحروبه، قال ببساطة: «الله ولينا، وهو الذي جاء بهذه الحرب، ونحن في قبضته» [٥، ص ١٣].

وأدى ظهور مابا على مسرح الأحداث إلى امتداد الثورة الإسلامية إلى خارج نطاق شعوب التوكولور الفلبي، الذين كانوا القاعدة التي انطلقت منها الدعوة [٥، ص ٩٢؛ ٦، ص ص ٤٢ - ٤٢]. وانتقل بعد وفاته كثير من قادته العسكريين إلى جنوبي ضفة نهر جامبيا وإلى داخل مناطق أعلى النهر ليوسعوا بذلك نطاق الإسلام [٥، ص ص ٩٢ - ٩٣]. فنجد - مثلا - أن لات دايور حاكم كايور وآلبوري انجاي حاكم جولوف، عادا إلى السلطة في أوطانهما، ولعبا دورا هاما في أسلمة تلك المناطق [٥، ص ٩٣]، وهما ممن أسلما على يد الشيخ مابا نفسه كما سبق ذكره [٦، ص ٤٢؛ ٤، ص ص ١٤٣ - ١٤٥].

ويجدر بنا أن نقف لنلقي بعض الضوء على هذه الشخصيات التي لعبت دورا هاما في تاريخ الإسلام بغربي إفريقية كنتيجة من نتائج حركة الجهاد والدعوة التي قام بها الشيخ مابا.

جهود لات دايور [١٨٤٢ - ١٨٨٦م] في أسلمة الولوف

ولد لات دايور - أحد أبرز أبطال المقاومة الإسلامية والقومية السنغالية ضد الإمبريالية الفرنسية [١٦ ، ص ١٦٨] - بمحافظة كايور بالسنغال عام ١٨٤٢م . وعلى الرغم من أن هذه المحافظة وغيرها من محافظات المنطقة قد عرفت الإسلام بصورة مكثفة ، وكانت مراكز إسلامية تعليمية دعوية ، وذات أثر في المنطقة قبل أكثر من قرن ،[٤٤] إلا أن لات دايور لم يولد في محيط أسري إسلامي . فقد كان من أسرة ولوفية أرستقراطية . وكان الكثير من مثل هذه الأسر بكايور تعادي الإسلام ولكنها ترحب بشورى المسلمين المعلمين وتعينهم في وظائف السكرتارية [١٦ ، ص ١٦٧] والاستشارية الإدارية . ولم تعتنق بعض الأسر - مثل أسرة لات دايور - الإسلام إلا في القرن التاسع عشر . ولم يعتنق لات دايور نفسه الإسلام إلا على يد مابا كما ذكرنا ، عندما كان منفيا بسالوم (١٨٦٤و ١٨٦٩م) .

وعندما عاد لات دايور من منفاه إلى كايور عام ١٨٦٩م ، اعترف به الفرنسيون ملكا شرعيا عام ١٨٧١م ، لضمان الأمن في المنطقة .

قام لات دايور بمجهود كبير لتحويل دولته من شبه دولة إسلامية إلى دولة إسلامية كاملة ، وذلك ما بين عامي ١٨٧١م و ١٨٨٢م . وعاونه في المهمة معلمون وعلماء دين مسلمون ، عرفوا بالمرابطين ، كان من بينهم الشيخ مومار آنتاسالي امباكي Momar Anta Sali M'Backe (١٨٥٠ - ١٩٢٧م) ، والد أحمدو بابا ، الذي أسس الطريقة المريدية السنغالية [١٦ ، ص ١٧١] ، والشيخ مار دياخات ، الذي اشتهر بسعة علمه . واستخدم جميع مؤسسات دولته لنشر الإسلام ، وساعده أيضا في هذا الهدف تجار سانت لويس المسلمون . ولم يكن اهتمام هؤلاء جميعا منصبا على أسلمة شعبهم فقط ، بل اهتموا كذلك بأسلمة رجال البعثات التنصيرية الأوروبية ، الذين توسعت أنشطتهم التنصيرية في سنغامبيا منذ أربعينات القرن التاسع عشر [٤ ، ص ص ١٤٣ - ١٤٤ ؛ ١٦ ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ ، ١٧٢] .

وأحدث أثرا فعالا في جماعة التيدو البرابرة بأن جعلهم يتحولون إلى الإسلام [١٦ ، ص ١٧١] . وتسمى بأمير المؤمنين [١٦ ، ص ١٧١] .

---

٤٤ كانت تعرف هذه المنطقة قديما ببلاد التكرور . ودخلها الإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وهذا مضمون بحثنا للماجستير «دور العلاقات التجارية في دخول الإسلام إلي غربي إفريقية . »

وعندما عارض خطط فرنسا لمد خطوط للسكة الحديدية عبر أراضيه ليصلوا سانت لويس بداكار، أجبروه للمرة الثانية على مغادرة كايور عام ١٨٨٢م. فخاض حرب عصابات ضدهم ما بين عامي ١٨٨٢ و١٨٨٦م، ولكنهم تمكنوا من قتله في معركة ضدهم عند مدينة ديكايل Dekkile، في أكتوبر من عام ١٨٨٦م [١٦، ص ١٦٩]. [٤٥]

وكان مما أسهم في فشل مقاومة لات دايور ضد الاستعمار الفرنسي في بلاده: اصطدامه بواقع مجتمعه. فإذا فحصنا المعلومات الأرشيفية المتوافرة، نجدها تشير إلى أنه دخل في صراع مع النظام الاجتماعي لدولته، بسبب التناقضات التي أثيرت. فقد واجه معارضة من رقيقه الخاص ورقيق القصر لكونه أصبح مسلما. وهرب سجناؤه وجواريه. وأراد رقيق السلطة الملكية أن يعزلوه ويحلوا محله ابن أخيه سامبا لاوبي Samba Laobe، وذلك منذ عام ١٨٧٩م وما بعده، وحطم لات دايور الزعيم القوى لهؤلاء الرقيق، ولذا لعب هذا المملوك دورا كبيرا في إسقاط لات دايور فيما بعد. واتهمه النبلاء بإساءة معاملة الزعماء، وبذلك ألبوا عليه العناصر المؤثرة في مجتمعه. واعتبر لات دايور نفسه صاحب سلطة مطلقة، ورفض الاستفادة من المجالس الاستشارية التقليدية [١٦، ص ١٦٩].

آلبوري انجاي ودوره في حركة الإسلام بسنغامبيا في سبعينات القرن التاسع عشر

إضافة إلى ما قام به لات دايور من عمل جليل في أسلمة بلاده، فهناك إلى الشرق من كايور، قام ابن أخيه آلبوري انجاي في السبعينات من القرن التاسع عشر بمباشرة أسلمة شبيهة بتلك التي اتبعها لات دايور في كايور، بينما في والو Walo إلى الشمال حقق تجار سانت لويس المسلمون والدعاة المسلمون نجاحا كبيرا في إدخال التيدو في الإسلام. وكان

---

٤٥ إن مسألة رفض دايور مشروع خط سكة الحديد الفرنسية مثال جيد لذلك الصراع بين الإسلام والقومية من جانب والاستعمار من الجانب الآخر، خاصة أن الخط المذكور سيمكن الفرنسيين من السيطرة على تجارة الفول السوداني بصفة خاصة وحماية التجارة عامة والتمكين لهم احتلال هذا الإقليم، والتدخل سريعا في شؤون البلاد في كل مكان من غربي إفريقية. وفهم دايور بسرعة أن في هذا نهاية لاستقلاله. وكان الوقت متأخرا جدا ليفعل شيئا إيجابيا لإيقاف هذا المشروع، وكان الوقت مبكرا ليفهم الناس معنى تحرير إفريقية من الاستعمار الأوروبي [١٦، ص ١٦٩].

هؤلاء أكثر الناس عداء للإسلام من قبل. وأصبح الإسلام دينا سائدا في باثورست - بانجول، عاصمة جامبيا الحالية - التي أسست عام ١٨١٦م لتكون مدينة نصرانية. أصبح الإسلام فيها سائدا في ثمانينات القرن التاسع عشر، نتيجة لتدفق تجار الولوف والماندنجو والدعاة على هذه المنطقة، وعبر جهاد الشيخ مابا دياخو والشيخ فودي كابا. وكذلك أصبح غالبية سكان المراكز التجارية بمنطقة كازامانس، مثل زنكنشور Zinquinchor وسيدهيو Sedhiou وكارابين Carabane، أصبحت مسلمة. وذلك بدليل ما كتبه منصر من بعثة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في باثورست، في تقرير له عام ١٨٩٩م، قائلا بأن كل شعوب الولوف والماندنجو والسيرير بالمدينة كانوا مسلمين، ولم يبق له إلا القليل من السكان ليدخلهم في النصرانية [٤، ص ١٤٥].

فودي كابا [١٨١٨ - ١٩٠١م] ودوره في حركة الإسلام بسنغامبيا

ومن القادة الذين حملوا راية الجهاد بعد استشهاد الشيخ مابا، الشيخ فودي كابا.

كان فودي كابا من قبيلة الماندنجو، ولم يمنعه ذلك من تأييد حركة الشيخ ألفا مولو - الفولاني - الجهادية الإسلامية، التي اندلعت في أعالي نهر جامبيا سنة ١٨٧٠م، ضد سيطرة الماندنجو وتعسفهم ضد الفولاني بجنوبي نهر جامبيا. وفرضت حركة ألفا مولي سيطرتها على مناطق توماري وجيمارا وعدد من المشيخات بالمنطقة، بعد صراع دام خمس سنوات. وأسس منها دولة فولادو الإسلامية، التي غطت نحو خمسمائة كيل مربع في منطقة المراكز الهامة من أعالي نهر جامبيا، واتخذ مدينة اندورنا N'Dorna عاصمة له. وعندما توفي عام ١٨٨١م، خلفه أخوه باي كاري، ولكن أصبح ابنه موسى مولو مركز قوة من وراء الستار، وأسهم الابن بطبيعته الاستبدادية في سقوط الدولة في تسعينات القرن التاسع عشر، عندما تمرد عليه حتى مؤيدوه الذين قادهم زعماء من علماء الدين المسلمين، أحدهم فودي كابا.

بعد أن أقام فودي كابا بفولادو في سبعينات القرن التاسع عشر، شكل جماعة قوية من الأنصار قبل أن يخوض حربا مقدسة باسم الإسلام. وكان هدفه الرئيس من حربه هزيمة موسى مولو، الذي هاجم مستوطنته، وقتل والده، واختطف زوجته وأطفاله. وعلى الرغم من الخراب الذي حل بالمنطقة نتيجة للصراع بين هذين الرجلين، إلا أن من النتائج

الإيجابية لحركة فودي هو أن المسلمين مارسوا ضغوطا قوية على الحكام لاتخاذ التدابير اللازمة للمحافظة على قبضتهم على التجارة ومنع البلاد من أن تقع في أيدي الغرباء وغير المسلمين. ولذا تجمعوا خلف فودي كابا، واستولوا على السلطة، ثم أخذوا في دعوة الناس إلى الإسلام، ونجحوا في تحويل كثير من الناس إلى الإسلام، ومن أبى الإسلام غادر البلاد [٤، ص ١٤٣].

وختم حياته الجهادية شهيدا على يد تحالف مكون من البريطانيين والفرنسيين وأذنابهم من منافقي الفولالي والوثنيين [٤، ص ١٤٣؛ ٧، ص ٨١].

ونقول في ختام البحث إن مما يدل كذلك على الآثار الإيجابية لحركة الشيخ مابا الإسلامية الجهادية الإصلاحية أنه عندما أجريت الإحصاءات السكانية في الربع الثاني من القرن العشرين، وجد أن أكثر من ٨٠٪ من سكان الدويلات السوننكية القديمة قد اعتنقوا الإسلام، بينما كانت الغالبية وثنية أو مسلمة اسميا قبل مائة سنة مضت [١، جـ١، ص ٢٥٤؛ ٦، ص ٤٢]. وهذا بلا شك أعظم نتيجة للحركات الجهادية الإصلاحية في المنطقة، بما فيها حركة الشيخ مابا، التي أسهمت في الإسراع بالأسلمة بغربي سنغامبيا بالذات [٢٣، جـ١، ص ٨٢]. ومما ساعد على اتساع نطاق الأسلمة في هذه المناطق تعسف التيدو[٤٦] الوثنيين ضد بقية المواطنين [٥، ص ٧٨]. فلجأ الناس إلى قرى وبيوت الشيوخ المسلمين ليحموهم من ظلم التيدو، واقتنعوا أخيرا بالإسلام، فدخلوه زرافات ووحدانا [٧، ص ص ٦٦ – ٦٨].

خاتمة البحث

أوضحت هذه الدراسة أن الشيخ مابا قد نشأ في بيت علم ودين. وكان معلمه الأول والده. والتقى بالشيخ الحاج عمر الفوتي زعيم التجانية عندما كان له من العمر أربعين عاما، فحرضه الأخير على الجهاد. فشرع في الجهاد باللسان من خلال حلقات دروسه العامة والخاصة نطلاقا من مدينته العلمية الدعوية كير مابا، التي تخرج فيها جماعة من أبناء وجوه قبائل المنطقة، الذين كان لهم دور بارز في قيادة حركته الجهادية ضد المستعمرين

---

٤٦ إن كلمة «تيدو» لدى جماعة «ولوف» تقابل «سوننكي» عند جماعة «ماندينكي»، وتعني: الخبث والوحشية والدناءة والخشونة والكفر: انظر [٧، ص ٦٥].

الأوروبيين النصارى وحلفائهم من زعماء الدول الإفريقية الوثنية والإسلامية.

وبينت الدراسة أن حركة مابا الإصلاحية كانت واحدة في سلسلة حلقات الحركات الإسلامية الجهادية الإصلاحية بغربي إفريقية، التي سبقتها أو جاءت بعدها، مثل حركة الشيخ ناصر الدين (ت ١٦٧٤م)، ومالك داودا ساي (ت ١٧٠٢م)، وعبد القادر (ت ١٨٠٤م)، وعثمان بن فودي (ت ١٨١٧م)، وصالح محمد جنتا (ت ١٨٢٠م)، وأحمدو لوبو (ت ١٨٤٤م)، رحمدر (ت ١٨٤٨م)، وعمر الفوتي (ت ١٨٦٤م)، وألفا مولو (ت ١٨٨١م)، ولات دايور (ت ١٨٨٦م)، ومحمد الأمين درامي (ت ١٨٨٧م)، وساموري توري (ت ١٩٠٠م).

لقد أسهمت الحركات المشار إليها مع غيرها في أسلمة مجتمع غربي إفريقية. وواجهت حركات القرنين السابع عشر والثامن عشر والنصف الأول من التاسع عشر أعداء في داخل مجتمعاتها من وثنيين ومسلمين منحرفين أو جهلاء. ولكن بعد ذلك دخل عدو جديد ساحة الصراع ضدها، وهم المستعمرون الأوروبيون. ولذا كان السبب الرئيس في انتكاسات وإخفاقات حركات النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع العشرين دخولها في صراع مرير مع الغزاة الأوروبيين الذين استخدموا أسلحتهم المتطورة ضد المسلمين. وشجعوا الحكام المحليين من مسلمين ووثنيين على الوقوف معهم ضد الإصلاحيين. وجندوا مجموعات كبيرة من الأفارقة، جلهم من السنغال، للعمل معهم في سلاح المشاة والخدمات.

وأشارت الدراسة إلى أن مما ساعد مابا في مسعاه لأسلمة وإصلاح المجتمع السنغامبي ممارسة حكام وشعوب الماندنجو أو السرننك - يعني غير المسلمين من الماندنجو وغيرهم - الظالمة تجاه الآخرين. فقد حرموا غيرهم - خاصة المسلمين - من الحقوق السياسية والاقتصادية، حيث أقصوهم من المشاركة السياسية في إدارة البلاد وفرضوا عليهم الإتاوات الباهظة، وحرموهم من امتلاك الأرض. لذا أصبحت المنطقة مهيأة لحركة إصلاحية، واحتاجت الحركة إلى قيادة واعية وقوية ومؤثرة تجمع العناصر الساخطة على الأوضاع وتوجههم نحو التضامن لإحداث التغيير المطلوب. وتمثلت القيادة المطلوبة في شخص الشيخ مابا.

وبينت الدراسة أن أول صدام مسلح وقع بين جماعة مابا وقوات سوننكة بادبو كان عام ١٨٦١م، وأنه عندما دخل المستعمر البريطاني حلبة الصراع ضد المسلمين والسوننكة بالمنطقة، وأسقطوا مدينة سواريكندا، رأى الشيخ مابا أن من الحكمة تجنب المواجهة العسكرية معهم، ومحاولة اتباع أساليب المداراة ليحيدهم حتى يكسب الوقت الكافي لإعداد القوة المناسبة التي تستطيع الوقوف في وجه أسلحتهم المتطورة الفتاكة. لكن سارت الأمور في غير الطريق الذي يريد، ففرضت عليه الحرب في الجبهتين البريطانية والسوننكية. ونتج عن صراعه مع الحاكم السوننكي ببادبو مقتل ابن الأخير، فاضطر مابا لإعلان الجهاد عليه قبل أن يثأر لمقتل ابنه. فتقاطرت عليه جموع غفيرة من مسلمي المنطقة، تمكن بهم من إسقاط مدينة انديا، عاصمة دولة بادبو، وقتلوا حاكمها، وأعلن مابا نفسه إماما عليها.

شجع تطور الأحداث كل مسلمي جامبيا على الانتفاضة ضد السيادة السوننكية، مما ألجأ حكامهم إلى الارتماء في أحضان البريطانيين.

ودخل الفرنسيون ساحة الصراع، فانحازوا إلى معسكر سامبا لاوبي ضد معسكر والده ماكودو، الذي أسلم على يد مابا، ووحد قوته معه للسيطرة على إقليم سالوم، حيث دار صراع حوله بين سامبا ووالده. وحسم الفرنسيون بأسلحتهم المتطورة الصراع لصالح سامبا.

أراد الله أن يتوفى ماكودو بعد فترة وجيزة من هذه الانتكاسة العسكرية، ولحق به ابنه سامبا بعد نحو ثمانية أشهر، وبذا انعدمت المنافسة، مما أتاح الفرصة لمابا للسيطرة على إقليم سالوم، وانضمت إليه أعداد هائلة من مسلمي جامبيا، قادهم لتحطيم مؤسسات السوننك التقليدية، ولكنهم هزموا للمرة الثانية عند مدينة كونيلا، فانسحب مع بقيتها إلى بلدة صمبندو.

لم تؤثر الانتكاسة في مسيرة الجهاد، الذي نجح في ميادين أخرى كثيرة، بل اضطرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى إبرام معاهدة سلام مع مابا وآخرين من حكام المنطقة، عام ١٨٦٤م، كان من أهم بنودها الاعتراف بمابا إماما وحاكما شرعيا على إقليمي بادبو وسالوم، ظنا منهم أن ذلك سيخدم قضية استتباب الأمن ومن ثم انسياب الحركة التجارية.

أما الذي أثر سلبا على مسيرة الجهاد طموحات القادة العسكريين التي لم يتمكن مابا من السيطرة عليها كاملا. ومثال ذلك تحريض أحدهم - لات دايور - له على نقض معاهدة

عام ١٨٦٤م، وترتب على ذلك غزو قوات إسلامية قبيلة الجولوف عام ١٨٦٥م.

وأثير الفرنسيون عندما أحسوا بمحاولة مابا توحيد قوى المسلمين بسنغامبيا، فقاموا بحملة عام ١٨٦٥م للقضاء على مثل هذه الحركة التي تهدد وجودهم بالمنطقة. وأتبعوها بحملة أخرى عام ١٨٦٧م، وتضامن معهم فيها السيرير وسوننكة صومب، واستشهد مابا على إثر معركة صومب.

وأبانت الدراسة أن عدة عوامل تضافرت للقضاء على حركة مابا قبل أن تكمل برنامجها الإصلاحي، من أبرزها: فقدان السلطة المركزية التي يمكنها السيطرة لمدة طويلة على وحدة الجماعات العرقية المختلفة التي تشكلت منها قواه. فوقعت انشقاقات في صفوفها، وتضاعفت الانشقاقات بعد وفاة مابا، لأن ابنه وخليفته مامور لم يتمكن من المحافظة على البقية الباقية من وحدة الحركة، فواجه حركات قومية انفصالية داخل الجماعة، مثل حركة فودي كابا وبيرام سيسي، بل انتقلت الانشقاقات إلى داخل أسرة مابا، حين وقف سعيد ماتي في وجه أخيه مامور، وتحالف مامور مع بيرم وملك سالوم لمواجهة سعيد. وانتقلت الانشقاقات كذلك إلى داخل المجموعات الإسلامية التي انشقت على الحركة الأم. وتدخل المستعمر البريطاني والفرنسي في الصراع للمحافظة على توازن القوى في المنطقة لصالحه.

وأوضح البحث أنه على الرغم من قصر مدة جهاد مابا العسكري إلا أن الحركة قامت بإنجازات هامة في مجال الإصلاح الديني، أهمها نجاحه في ضم كثير من دويلات ومجتمعات وشعوب وقبائل سنغامبيا في كيان سياسي إسلامي واحد شكل خطرا حقيقيا على الوجود الاستعماري بالمنطقة، ولذا حاربوه بالسلاح العسكري والدبلوماسي. وخلف مابا وراءه قادة مجاهدين، حملوا الراية من بعده إلى نهاية القرن التاسع عشر، وأسهموا معه في جعل جذوة الجهاد متقدة في نفوس المسلمين حتى تمكنوا من الحصول على استقلالهم بُعَيْدَ منتصف القرن العشرين.

المراجع

[١] Quinn, C.A. "Maba Diakho and the Gambian Jihad, 1850 - 1890." In *Studies in West African Islamic History,* Vol. 1, edited by J.R. Wills. London: Frank Cass, 1979, 234-58.

[٢] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م). *العبر وديوان المبتدأ والخبر*. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦م.

[٣] القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م). *صبح الأعشى في صناعة الإنشاء*. القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٥م.

[٤] Clarke, P.B. *West Africa and Islam. A Study of Religious Development from the 8th to the 20th Century*. London: Edward Arnold ,1982.

[٥] Klein, M. A. *Islam and Imperialism in Senegal, Sine - Saloum, 1874 - 1914*. Edinburgh: Edinburgh University Press. 1968.

[٦] Quinn, C. A. "Maba Diakho Ba, Scholar - Warrior of the Sengambia." In *Leadership in 19th Century Africa,* ed. by Prof. Obaro Ikime. London: Longman Humanities Press, 1974, 34-42.

[٧] سلا، عبد القادر محمد. *المسلمون في السنغال، معالم الحاضر وآفاق المستقبل*. من سلسلة كتاب الأمة، رقم ١٢. الدوحة: مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، شوال ١٤٠٦هـ.

[٨] Ba, Tamsir Ousman. "Essai Historique Sur Le Rip (Senegal)." *Bulletin de l'Institute Français d'Afrique Noire*, 19, 34 (1967), 564-91.

[٩] Fernandes, Valentin. *Description de la Cote Occidentale d' Afrique: Senegal au Cape de Monte, Archipels*, ed. by T. Monod, A. Texeira da Mota, and R. Mauny. Bissau: Centro de Estudos da Guinea Portuguesa, 1951 .

[١٠] Jobson, Richard. *The Golden Trade of the Moors*. London: Nicholas Okes, 1963.

[١١] Park, Mungo . *Travels into the Interior Districts of Africa.* London: J. Murray, 1816.

[١٢] Moore, Francis. *Travels into the Inland Parts of Africa*. London: E. Cave, 1738.

[١٣] Pool, T. *Life, Scenery and Customs in Sierra Leone and the Gambia.* London, 1850.

[١٤] Trimingham, J. S. *Islam in West Africa.* Oxford: Clarendon, 1959.

[١٥] Gailey, Harry A., Jr. *History of the Gambia.* London: Routledge and Kegan Paul, 1964.

[١٦] Monleil, V. "Lat- Dyor, Damel of Kayer (1842 - 1886) and the Islamization of the Wolof of Senegal." In *Islam in Tropical Africa.* London: Hutchinson, 1980, 166-72.

[١٧] Klein, Martin. "The Moslem Revolution in Ninteenth - Century Senegambia." In *Boston University Papers on Africa: History*, ed. by Daniel Mc Call, Jeffrey Butler, and Norman Bennet. New York : Praeger, 1969, 4: 31-33.

[١٨] *The African Times*, IV, 39, 23 September 1864.

[١٩] Archives de la Ministère de la France d' Outre Mer, Senegal: 1:51 . Pint-laprade to M. M. C. (15 June 1866).

[٢٠] Ba, Ousman Jamma. Oral Interview. Bathurst (1965).

Obichere, Boniface I. F*rance and Britain in Africa - Imperial Rivalry and Colonial Rule,* ed. [٢١]
by Gifford and Louis. London: Yale University Press, 1978.

Co/87/124, Moloney to Governor - in - Chief, Sierra Leone (11 June 1885). [٢٢]

Hargreaves, J. D. *West Africa Partitioned, Vol. 1, the Loaded Pass, 1885 - 1889.* London: [٢٣]
Macmillan, 1974 .

Behram, L. C. *Muslim Brotherhoods and Poltics in Senegal.* Cambridge: Harvard University [٢٤]
Press, 1970.

Shaikh Maba Diakhou and His Islamic Jihad Reform Movement in West Africa (1850 - 1890)

Mahdi Rizg Allah Ahmad

Associate Professor, Islamic Studies Dept., College of Education, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This research aims to introduce the Moslem scholar, preacher, mujahid and reformist Maba Diakhou . It highlights the following points in this regard:

1. His name, family, tribe, early life and educational career .
2. The structure of the social, political and religious life of his community .
3. His leading role in the Islamization of his society before his jihad .
4. The factors which contributed to the emergance of an Islamic state under his leadership.
5. His jihad against the local African rulers and the French colonists in Senegambia .
6. The factors which played a role in his defeat and death, and the downfall of his short-lived Islamic state.